نساء رائدات

٥

من الغرب

املي نصرالله





نساء رائدات

مِنَ الغرب

(٥)



إمِلي نصرالله

نساء رائدات

مِنَ الغرب

(٥)

الدار المصرية اللبنانية

الطبعة الأولى

٢٠٠١



الدار المصرية اللبنانية طباعة . نشر . توزيع
16 شارع عبد الخالق ثروت تلفون: 3936743 - 3910250 فاكس: 3909618 00202 ص ب: 2022 القاهرة
AL-Dar AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH Printing - Publishing - Distribution
16 Abd El-Khalek Sarwat st. P.O Box. 2022 Cairo - Egypt Tel: 3910250 - 3936743 Fax 00202 3909618

ماري كوري



«في العلم علينا أن نهتم بالاشياء لا بالأشخاص».


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«إنها الوحيدة بين المشاهير الذين لم تفسدهم الشهرة».

هذه الشهادة للعالم **أينشتاين**، سجلها في معرض كلامه على زميلة سبقته فوق دروب المعرفة والبحث العلمي.

ماري كوري، أو **مانيا سكلودوفا**، الفتاة البولونية الشقراء، التي حملت قامتها الناحلة، وطموحها الكبير وغادرت بلدها، لتتابع دراستها في جامعات باريس.

* * *

ولدت **ماري** في فرصوفيا، عاصمة بولونيا، في السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٦٧ .

أبوها **فلاديسلاف سكلودوفسكي** عالم فيزياء. لها عدة اخوة وأخوات هم: **صوفي**، **برونيا**، **هيلينا**، **جوزف**، **ومانيا** أو **ماري** أصغرهم جميعاً.

وإن أهم حدث أصاب العائلة، بعد ولادة الابنة الصغرى، هو الفقر، الذي اجتاح **بولونيا** على إثر احتلالها من قبل قيصر **روسيا**، عام ١٨٧٢، مما اضطر الأم المثقفة، ورئيسة معهد البنات، الى أن تلجأ إلى صناعة الأحذية، كي تعين زوجها على كسب رزقه. ثم لم تلبث الأم أن أصيبت بداء السل، فلجأ الأب إلى تأجير نصف غرف المنزل للطلاب، ليؤمن دخلاً محدوداً. ولم تلبث الأم أن توفيت، مع ابنتها

البكر بداء التيفوس، وانتشرت في جو العائلة سحابة الحزن القاتمة.

* * *

أظهرت **ماري**، منذ طفولتها، تفوقاً لفت إليها أنظار مدرّسيها. وكانوا يسجلون ملاحظات تؤكد ذكاءها وقوة ذاكرتها. وقد فازت بالشهادة الثانوية وهي في السادسة عشرة من عمرها، ونالت وساماً تقديرياً من الذهب.

بعث نجاحها فرحاً كبيراً في نفس الأب، فأرسلها في إجازة شهرين إلى الريف، حيث يقطن أقارب لها، وهناك تعرفت إلى «**فولكلور**» بلادها، إلى الأزياء التقليدية، الغناء والرقص والفرح الريفي المميز.

وحين عادت من العطلة، بدأت تعطي دروساً خاصة، كما انخرطت في حركة المقاومة السرية، وساهمت في تدريس اللغة البولونية، وإحياء التراث القومي في نفوس الصغار.

* * *

في هذه الأثناء، كانت شقيقتها **برونيا** قد أنهت دراستها، وسافرت إلى **باريس** لتعذر تدريس الطب للفتيات في جامعة بلادها.

أما **ماري**، فقد حملت مسؤولية العمل باكراً. ففي السابعة عشرة من عمرها عملت مربية لدى أسرة ثرية، لتساعد **برونيا** على دفع أقساط الجامعة. وقد أحبها ابن العائلة الثرية، **كازيمير**، وخفق لحبه قلبها الفتي، إلا أن معارضة العائلة حالت دون لقاء القلبين.

ووردت في هذه الأثناء رسالة من **برونيا**، التي تزوجت زميلاً لها يدرس الطب، دعت فيها شقيقتها لتتابع دراستها في **باريس** وتقيم معها.

وكانت **ماري** قد أصبحت في الرابعة والعشرين من عمرها، حين عانقت أباها، مودعة وهي تتمتم: «**لا تجزع يا أبي. أغيب سنتين، أو ثلاث سنوات، ثم أعود إليك حاملة شهادتي العليا، ونعيش معاً**»...

* * *

دخلت **ماري** جامعة السوربون في ٣ تشرين الثاني من العام ١٨٩١ . وكان الطلاب يتأملونها ويتساءلون: «**من تكون، هذه الفتاة الجدية، ذات الثياب القاتمة، والشعر الأشقر الناعم؟... إنها دائماً في المقعد الأول خلال حصة الفيزياء**»...

فيجيب بعضهم:

– **إنها الفتاة الغريبة ذات الاسم العجيب.**

* * *

أكثر من عقبة اعترضت «**الفتاة الغريبة**»، منها: جهلها اللغة الفرنسية. كذلك كانت قليلة الاختلاط بالطلبة الفرنسيين بسبب خجلها، واكتفت برفقة الطلاب البولونيين. وكان الشبان آخر همومها، فهي متعطشة الى العلم، وتعيش في غرفة حقيرة، تدرس على نور مصباح الكاز، ولا تجد لديها المال، ولا الوقت، لتؤمن التدفئة، أو تشتري قطعة لحم تتغذى بها، بل كانت تكتفي من الطعام بقطعة خبز وقليل من الزبدة، حتى أصيبت، من جراء هذا الاهمال، بسوء التغذية وفقر الدم. وكان يغمى عليها في أحيان كثيرة... ولما علمت شقيقتها **برونيا** بذلك، هرعت إليها مع زوجها، وحملاها إلى منزلهما، حيث أشرفا على تطبيبها إلى أن استعادت عافيتها. لكنها رفضت السكنى معهما، واعدة بأن تكون أكثر اهتماماً بنفسها.

ويلاحظ الذين عرفوها، في هذه المرحلة، أنها كانت منظمة، صبورة، عنيدة، تعرف ماذا تريد، وتسعى إليه بكل قوتها وصفاء ذهنها.

أما الذي كانت تريده، فكان المزيد من المعرفة والعلم. وأخذ نجمها يشع في كليهما.

وقد لاحظ الفتاة أستاذ الفيزياء، **بيار كوري**. كما أدرك تميزها بذكاء خارق وجدية نادرة، فراح يتقرب منها، وأول لقاء بينهما كان عام ١٨٩٤ . كذلك لفت هو انتباهها بهدوئه وبساطته ووضوح أفكاره، وبشخصيته التي توحي بالثقة والمحبة. وقد كتب في مفكرته، على اثر ذلك اللقاء:

«**إن النبوغ العلمي نادر جداً لدى النساء. اجتمعت الليلة، بفتاة جميلة الطلعة، نيرة الفكر، سعدت بمعرفتها واكتشاف نبوغها. وان التحدث إليها عذب جداً**».

وكان **لبيار** سحره الخاص. فهو ذكي، طبيعي الأناقة تزين وجهه لحية، تسطع فوقها عينان ذكيتان. وهو باريسي المولد، متحدر من أسرة علماء ويصنف بين العباقرة. فقد كان في التاسعة عشرة من عمره حين أصبح أستاذاً في كلية العلوم، ثم عين رئيس فرع الفيزياء والكيمياء في الكلية.

* * *

أول هدية تلقتها **ماري** من **بيار** كانت كتاباً علمياً من تأليفه، كتب عليه عبارة الاهداء التالية: «**إلى الآنسة سكلودوفسكا مع احترام ومحبة المؤلف**».

ثم صار يزورها في غرفتها الصغيرة، وينفقان ساعات في الأحاديث العلمية. ولما توالت اللقاءات، طلبها للزواج، فترددت بادئ الأمر، إذ كانت مصممة على العودة إلى بولونيا، واعتبرت قبولها بالزواج خيانة لوطنها.

وعادت إلى بلدها بالفعل، فلاحقتها رسائل **بيار**، وحاول إقناعها، تارة بالعاطفة، وطوراً بالمنطق، حتى بات صعباً عليها الافلات منه.

وقد أبدى استعداده **للذهاب** إلى بولونيا والاقامة معها هناك، يعطي دروساً في اللغة الفرنسية. وكانت **ماري** تعلم أية تضحية هي هذه بالنسبة الى العالم، فعادت إلى باريس وكاد قلب **بيار** ينفجر من السعادة، إنما كان عليه أن ينتظر عدة أشهر قبل أن يتم الزواج.

كان السادس والعشرون من شهر تموز آخر يوم في حياة **الآنسة مانيا سكلودوفسكا**. فبعد هذا التاريخ أصبح اسمها: **السيدة ماري كوري**.

لم يكن عندها سوى ثوب المختبر، فطلبت من والدة صهرها أن تعيرها ثوباً، يمكن أن تحوله، بعد الزفاف، إلى ثوب عمل. لكن **برونيا** أخذت المبادرة، فأحضرت خياطة وقماشاً، وصنعت للعروس ثوباً من الصوف الكحلي اللون، مع «بلوز» مقلمة باللونين الكحلي والأزرق. وبدت ماري عروساً جميلة وأنيقة وسعيدة، برغم غياب الثوب الأبيض والغداء التقليدي والهدايا الثمينة.

وكان الزواج مدنياً، وتروي إبنتها **إيف**، كاتبة سيرة والدتها، فتقول: «**ان كل ما كانا يملكانه هو دراجتان هوائيتان ينتقلان بواسطتهما بين قرى الريف، حيث قضيا أيام العسل السعيدة**».

وقد حضر والد **ماري** الزفاف، وكان فخوراً بابنته، وبتمكنه من التحدث إلى والدي صهره بلغة فرنسية سليمة. وقال لهما ببساطة: «**سوف تكون ماري جديرة بالمحبة. منذ ولدت هذه الفتاة، لم تسبب لي أية متاعب**»...

* * *

وتبدأ حياة الزوجين في شقة متواضعة، أقاما فيها، وانطلقا في ميدان العلوم والأبحاث. وكان يرفرف بينهما الحب السامي، الذي يصعد من القلب، ليستقرّ في العقل ويحوله إلى طاقة فعل لا تحد.

وفي ١٢ أيلول من العام ١٨٩٧ تمت سعادة الزوجين بولادة طفلة جميلة سمياها **إيرين**. وبعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ، ظهرت أولى نتائج الأبحاث التي بدأتها **ماري**. ولم تكن حياتها سهلة، إذ كان عليها أن تقوم بدور الزوجة، ربة البيت والعالمة. إنما تعاون الزوجين كان يخفف كل ثقل.

* * *

توقفت **ماري**، خلال أبحاثها، عند ما توصل إليه العالم **هنري بيكيريل**، وهو زميل لزوجها، تمكن من فحص ذريرات معدن نادر هو الأوران، يبث إشعاعاً غامضاً يعرف بالاشعاع الأوراني. وتوصل هذا العالم إلى كتشف الظاهرة التي أطلقت عليها **ماري**، فيما بعد اسم «**راديو - أكتيفيتي**». إلا أن مصدر الاشعاع ظل غامضاً. وكان هم العالمة الشابة أن تجد غرفة تحولها إلى مختبر تتابع فيه أبحاثها. وبالفعل وجدت تلك الغرفة في مبنى كلية العلوم، وكانت غرفة خالية من جميع وسائل الراحة، شديدة الرطوبة، ولا تصلح للمعدات

الكهربائية. لكن هذا لم يثنها عن عزمها. وفي ١٢ نيسان من العام ١٨٩٨ نشرت دراستها الشهيرة عن مادة معدنية تشبه الزفت، وتحوي جسماً غريباً وجديداً يرسل إشعاعات حيوية. وقد تمكنت من عزل هذه المادة عن غيرها، وسمت العنصر الأول: «**بولونيوم**» والعنصر الثاني: «**راديوم**».

وكان **بيار** يراقب زوجته، ويديها المحترقتين بسبب الاكتشاف الجديد. وشعر بأنه آن له أن ينضم إليها، ويساعدها في أبحاثها.

* * *

مشكلة جديدة تعترض العالمة، وهي صعوبة الحصول على المعدن المعروف باسم «**بيتشبلاند**» وهو غالي الثمن ويحتوي على عنصري اكتشافها، كما أنه موجود في **بوهيميا**، أي خارج الحدود الفرنسية. وقد سعت للحصول عليه مع الحكومة النمساوية، وتكلل سعيها بالنجاح، إذ سمح لها بأن تنقل طناً من هذه المادة.

وانكبت مع زوجها على العمل والبحث، مُدَّةَ أربع سنوات. وكانت رابطة قوية من الحنان والتعاون والذكاء، تشد الزوجين نحو هدف واحد هو: **المعرفة**... وكتبت **ماري** عن هذه المرحلة تقول: «**كنا نعيش في حلم**». هذا برغم قيامها بدور العالمة والمهندسة والعاملة والباحثة. وكان عليها أن تحرك الزفت بواسطة محرك غليظ كي تعزل **الراديوم**، وهذا عمل مرهق للرجال، فكيف هو بالنسبة إلى سيدة ناحلة، مرهفة مثلها؟!

وفي يوم، انصرف الزوجان إلى منزلهما كي يرتاحا من عناء نهار شاق. لكن ما لبثا أن عادا إلى المختبر استجابة لنداء غامض. وحين

فتحا الباب صرخت **ماري**:

- لا تُنِرْ المصباح يا بيار...

ثم أضافت بفرح:

- كنت دائماً أتمنى أن يكون لون الراديوم جميلاً.. أنظر!

وكان الاكتشاف الحدث يشع من زاوية المختبر. وانحنى الزوجان يتأملان بذهول وفرح ثمرة أتعابهما.

على إثر هذا النجاح، قدمت وزارة الاعلام ميدالية تقدير **لبيار**، فأعادها مع عبارة:

«لست في حاجة إلى أوسمة. كل ما أحتاجه هو مختبر»...

ومقابل هذا الحدث المفرح تلقت **ماري** نعي والدها وهي في طريقها إلى زيارته. وحين وصلت سجدت أمام نعشه تستغفره عن بقائها بعيدة عنه وعن أرض **بولونيا**...

* * *

نعود إلى تتبع مسيرة الزوجين. فقد سجلا معاً أو منفردين إثنين وثلاثين بحثاً علمياً خلال خمس سنوات. وبدأت تردهما الرسائل من علماء أوروبا لمعرفة المزيد من المعلومات.

وفي يوم، قام بزيارتهما صديقهما «**بيكيريل**» وكان يضع في جيبه أنبوباً يحوي مادة **الراديوم**. فاحترق جلده من جراء ذلك. وهذا ما جعل **بيار** يدرس، مع فريق من الأطباء، تأثير هذه المادة على الحيوان. وتبين لهم أنه يشفي بعض الأورام والبثور ومنها الأورام السرطانية.

وكانت هذه الخطوة الأولى في اكتشاف منافع **الراديوم** وأهميته الطبية.

* * *

عندما حان موعد **ماري** لتناقش أبحاثها العلمية،اشترت للمناسبة ثوباً أسود، ووقفت أمام قاعة مكتظة بكبار العلماء، ودافعت عن نظرياتها، وأبحاثها بشجاعة وثقة، وبصوت ناعم، هادئ. وبعدما انتهت، عقدت اللجنة اجتماعا قصيراً، كلفت على اثره العالم **ليبمان** بإعلان ما يلي:

«**إن جامعة باريس تمنحك دكتوراه في علم الفيزياء، مع رتبة شرف رفيعة... باسم اللجنة أقدم لك تهانينا**».

* * *

انهالت على الزوجين إغراءات شتى لاستغلال اكتشافهما على الصعيد التجاري لكنهما رفضا كل ما يتنافى مع الروح العلمية التي كرسا لها حياتهما.

وفي يوم، وصلتهما دعوة من **اللورد كالفن**، وهو عالم بريطاني، ليقوما بزيارة لندن. فلبيا الدعوة، وحضرت **ماري** حفلة الاستقبال التي أقيمت على شرفها، وهي ترتدي ثوباً بسيطاً، بينما تألقت السيدات بأثواب فاخرة وحلى نادرة.

وحين عادت مع زوجها إلى غرفتهما، قالت لبيار: «**هل تعرف ما كنت أفكر به طوال الوقت؟.. لو حوّلنا تلك المجوهرات إلى مال، فكم مختبر نبني بثمنها؟**»...

وقدمت اليهما أكاديمية **ديفي** ميدالية ذهبية حولاها إلى إبنتهما لتلهو بها.

أما الحدث العظيم فقد جاء عام ١٩٠٣ عندما أعلنت أكاديمية العلوم السويدية منحها الزوجين والعالم **بيكيريل**. جائزة **نوبل للفيزياء** فكتبت **ماري** الى اخيها رسالة تقول فيها:

«سبعون ألف فرنك. إنه رقم كبير، وأنا منزعجة من الصحافة ومن الظهور والشهرة. أتمنى لو أختبئ تحت الأرض كي أنعم بالهدوء».

وقد وجدت ملجأ لها بعيداً عن الضجيج في أحضان الطبيعة.

وبعد انقضاء عام على هذا النجاح، وضعت **ماري** إبنتها الثانية **إيف**، التي ما كادت تبلغ عامها الثاني، حتى فجعت العائلة بفقد ركنها... كان **بيار** عائداً من اجتماع علمي، حين زلت به القدم وهو يجتاز الطريق، وصادف مرور عربة خيل صدمته، وأكملت عليه شاحنة محملة بثياب للجيش.

تركت الحادثة أثراً عميقاً في نفس الزوجة الشابة، ولبثت وحيدة، حزينة، لا تعزى. إنها فقدت فيه الزوج، والرفيق، وزميل العمل، ولم يَبْقَ هناك أي شيء يثيرها، حتى طفلتيها.

وهرعت إليها شقيقتها **برونيا**، تساعدها طبياً ونفسياً، وأخرجتها من صومعة حزنها.

وكان أول ظهور لها خلال محاضرة القتها في السوربون، وأثارت الاهتمام إذ كانت أول امرأة تقف فوق تلك المنصة العلمية.

بدأت محاضراتها من النقطة التي توقف عندها **بيار**، وكأنها تذكرت وصيته: «**يا ماري، إذا حدث لأحدنا مكروه، فعلى الآخر أن يتابع الطريق ويستمر في العمل**»...

ومن تلك اللحظة، كرست نفسها لتحمل المسؤولية الكبرى، فتقوم بدورها ودور العالم الكبير الذي فقدت. وترأست دائرة الفيزياء، وكانت أول امرأة تشغل هذا المركز.

* * *

في العام ١٩١١ منحت السيدة **كوري** جائزة **نوبل في الكيمياء** من أكاديمية العلوم في **استوكهولم**، وذلك تقديراً لإنجازاتها العلمية المنفردة بعد وفاة زوجها، وكانت الوحيدة بين النساء والرجال، في تحقيق هذا النجاح الباهر، نيل الجائزة مرتين.

وجدير بالذكر، أن ابنتها **إيرين**، التي اقتفت خطاها على درب العلم، نالت الجائزة ذاتها، وذلك بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على ذلك التاريخ. بالاشتراك مع العالم **فريديريك جوليوت**، الذي أصبح زوجها.

ومن المفارقات الأغرب من الخيال، أنها في حين كانت تقف فوق أرفع ذروة علمية، كان المجتمع الفرنسي، والصحافة فيه، يهاجمانها، وتُنْشَر عنها أبشع الأخبار، وتتهمها بعلاقة عاطفية مع مساعدها عالم الفيزياء والرياضيات **بول لونجيفين**. وقد ساهمت زوجة العالم وأمها في ترويج الشائعات عن العالمة الكبيرة، التي لزمت الصمت، وانزوت مع الألم والمرض، إلى أن امتدت إليها أيدي أصدقائها العلماء، تنقذها من آلامها.

لكن المساعدة ظلت محدودة، ولم تستطع أن تجنب **ماري** المرض. وأنفقت عاماً بكامله، وهي عليلة الجسم والروح، إلى أن زارها ذات يوم، العالم **أينشتاين**، ورافقها في عطلة ريفية.

* * *

مع عودة العافية إلى وجنتي العالمة، رجع إليها نشاطها العلمي، وقد دشنت عودتها بالسعي لإنشاء مختبر علمي باسم زوجها.

ومع حلول الحرب العالمية الأولى، انتهى بناء «**معهد الراديوم**» الذي أسسته وأشرفت على تنفيذه إنما لم يتسنَّ لها العمل فيه، فانصرفت إلى المساهمة في إسعاف الجرحى.

وكانت تطوف بين المستشفيات، تقود سيارتها المجهزة بالأشعة. وهكذا وضعت اكتشافها، على نطاق واسع، في خدمة الإنسانية.

وفي العام ١٩٢٠، زارتها صحافية أميركية تدعى **السيدة ميلوني** فأجرت معها مقابلة سألتها خلالها عن أمنيتها المفضلة، فأجابت: «**أمنيتي الحصول على درهم واحد من الراديوم كي أجري المزيد من الاختبارات**».

ونشرت المقابلة. وعلى أثرها تلقت **ماري** دعوة لزيارة الولايات المتحدة، حيث استقبلت بحفاوة كبيرة، وانهالت عليها التبرعات، فجمعت ما يكفيها من المال (مائة ألف دولار) لشراء الدرهم المنشود. وحولت الهدية لتكون باسم الإنسانية.

وقد تحدثت الصحافة عن تلك الزيارة على صفحاتها الأولى، وأسهبت في وصف البساطة التي تتحلّى بها المرأة الصغيرة الخجول، والعالمة التي لا تبالي بمظهرها.

وبعد ذلك، توالت انتصاراتها، فأسست، عام ١٩٢٥، معهداً لأبحاث **الراديوم في بولونيا**. وبعد عام انتخبت رئيسة لجنة التعاون الفكري في **جنيف**.

وحصلت على درهم آخر من **الراديوم** بعد دعوة وجهها إليها رئيس الولايات المتحدة آنذاك «**هوفر**» كما خصصت لها الحكومة الفرنسية أربعين ألف فرنك سنوياً، تقديراً لخدماتها العلمية.

* * *

وتشهد إبنتها **إيف** أن تلك الانتصارات لم تبدل شيئاً في حياة العالمة، ولا في تعابير وجهها، كما لم تفارقها بساطتها، وكان شعارها الدائم: «**في العلم علينا أن نهتم بالأشياء لا بالأشخاص**»...

وظلت تخاف من الجماهير، ويسبب لها الخجل صقيعاً في الأطراف وجفافاً في الحلق.

* * *

كذلك ترسم ابنتها في كتابها صورة المشهد الذي يتكرر يومياً: «**ماري ساهرة حتى الثانية أو الثالثة صباحاً. تجلس فوق الأرض، تحيط بها الأوراق، وهي تقوم بعد الأرقام باللغة البولونية**»...

وكانت، في تلك الفترة، مهتمة بالتأليف، ونشرت كتاباً عن زوجها، برغم إصابة عينيها بالمياه الزرقاء. وأبقت ذلك سراً لا يعرفه أحد سوى ابنتيها، إلى أن صارت تحتاج إلى مساعدة في تناول طعامها، ولجأت في المختبر إلى الوسائل التي يستخدمها المكفوفون.

وأجريت لها أربع عمليات، فاستعادت بصرها، وصارت تقوى على قيادة سيارتها بنفسها.

لكنها بدأت تتحدث عن النهاية، إذ كانت تعرف أنها لن تعيش طويلاً. وظلّ قلقها الوحيد مصير مؤسسة **الراديوم** بعد رحيلها.

* * *

وانكبت تكتب بنهم، وتدون كل ما يجب تدوينه، هذا برغم اعتراض طبيبها، ونصحه اياها بعدم إرهاق جسمها.

وكانت هي تتهرب من الأطباء، وتتجنبهم مثل أية قروية ساذجة. لكن الحمى التي لازمتها اضطرتها إلى الخلود للراحة، ولم تعد تغادر سريرها. **وإيف** بقربها، وأعراض المرض تتطور، وتطغى عليها، ويقترب منها الطبيب، حاملاً الابرة، في إحدى المحاولات لإنقاذها. فيرتفع صوت العالمة، يصده بضعف: «**أتركوني.. أريد أن أرتاح**»...

وكتب **البروفسور ريغو** الذي أشرف على علاجها: «**ان فقر الدم الذي أصابها لم يكن عادياً، بل من تأثير مادة الراديوم. العالمة قضت ضحية الأشعة التي اكتشفتها**»...

ومن بعض التقدير والجوائز التي نالتها:

* **١٨٩٣ درجة أستاذ علوم مرتبة أولى.**

* **١٩٠٣ دكتوراه علوم درجة شرف ممتاز.**

* **١٩٠٣ جائزة نوبل للفيزياء.**

* **١٩٠٤ أول امرأة مديرة لأبحاث الفيزياء في السوربون.**

* **١٩١١ جائزة نوبل في الكيمياء – أول أستاذة في كلية الطب.**

* **منحة الحكومة الفرنسية: أربعون ألف فرنك سنوياً.**

* **١٩٢٦ انتخبت رئيسة لجنة التعاون الفكري في جنيف.**

* ١٩٢٦ أول مديرة للأبحاث الفيزيائية في السوربون.
* ميدالية ذهبية من أنكلترا.

- التلميذة الخالدة - تأليف إيف كوري لابويس.
- مقابلة شخصية مع إيف لابويس نشرت في مجلة الصياد.
- امرأة محترمة - تأليف فرانسواز جيرو.



ماريا مونتسوري



«إن ما يهمني هو أطفال الغد».



«افتحوا الأبواب وليدخل مجد الطفولة.

هذا العصر عصرهم، أولئك الصغار الأحباء الذين يملأون وجه الأرض بالخير والفرح».

في مطلع صباها، وقفت الفتاة الجميلة، في وسط جمهرة من أطفال الأزقة تتأملهم، وتفكر:

«نحن على أبواب عصر جديد... حدث هام منتظر بالنسبة إلى الطفل».

كانت **ماريا مونتسوري** (١٨٧٠ - ١٩٥٢) تفكر في ذلك عملياً، لا تجريدياً، إذ إنها المحرك والدافع الأقوى والأول لحدث لم يلبث أن تشظّى وانتشر في الكون، انتشار أشعّة النور.

* * *

ليس للتعريف **بماريا مونتسوري** أكتب، فهي من أهم شخصيات القرن العشرين. كما أنها عرفت، في جميع بلاد العالم، عبر اكتشافها الذي وُصف بأنه يشبه اكتشاف **كولومبس**، في الحداثة، إنما يختلف عنه، لكونه اكتشافَ عالم الداخل في الإِنسان، لا قارة أو منطقة في الخارج.

ولدت **ماريا** في ٣١ آب ١٨٧٠، في بلدة **كيارافيللي** من مقاطعة **أنكونا** الايطالية. أبوها **الكسندر مونتسوري** من ضباط الجيش،

وسليل أسرة نبيلة؛ وأمها **رينلد ستوباني**، المرأة الجذابة والتقية، والتي أعطت ابنتها الكثير من خصالها. وقد كانت الأم تؤمن بالتربية النظامية، وفي ظلّها عاشت **ماريا** الطفلة حياة سعيدة.

وقد أبدت منذ طفولتها، اهتماماً بالضعفاء والمحرومين، ولم يتوقف اهتمامها عند حد الفكر، بل تعداه إلى الفعل، حين تعرفت في الجوار، إلى فتاة مشوّهة، حدباء، وأخذت على عاتقها مسؤولية الترفيه عنها، فصارت تتنزه معها عشية كل يوم، مما لفت أنظار الناس، للفرق الكبير بين الطفلتين، وهذا ما دفع الأم لتتدخل، وتطلب من ابنتها أن تساعد الفتاة بطريقة غير لافتة للانتباه.

* * *

ومما يروى عنها، أن المعلمة كانت تقرأ على الصف سيرة العظيمات من النساء، ثم التفتت إلى الطالبات تسألهن: «**ألا تطمحن الى أن تصبحن بين الشهيرات؟**»، **وجاء الجواب من ماريا**: «**لا... إن ما يهمني هو أطفال الغد. ولا أطمح الى أن أضيف سيرة امرأة أخرى إلى قائمة الشهيرات**».

* * *

لكن الشهرة انصبت عليها، بالرغم منها، وكُتبت سيرة حياتها بِلُغات الشرق والغرب.

وماريا وحيدة والديها، وقد سهرا على تربيتها وتعليمها. وكانت هي تحبهما كثيراً. ولا تطيق الأجواء الصاخبة، والنزاع. وفي يوم، سمعت والديها يتناقشان بصوت مرتفع، فما كان منها إلا أن جرّت الكرسي، وصعدت فوقه، ثم تناولت يدي أمها وأبيها وشبكتهما وهي تبتسم.

تلك إشارة مبكرة الى حبها للسلام، ذلك الحب الذي لم يفارقها في الحياة والعمل.

درست **ماريا** في معهد للدولة، ومن أجلها انتقل والداها إلى **روما**، وهي في الثانية عشرة من عمرها، واهتمت بالرياضيات اهتماماً رافقها دوماً. وكان طموح والديها أن تصبح ابنتهما معلمة، أقصى ما يمكن أن تبلغه فتاة تلك الأيام.

لكن الفتاة تخطّت هذا البعد، فحاولت أن تدرس الهندسة، ودخلت معهداً تقنياً للذكور، ثم انتقلت لدراسة علم الجيولوجيا، فدراسة الطب.

الطب؟... **ماريا** وحدها تعلم كم كلفها ذلك الطموح!

* * *

أولاً، أصبحت موضع سخرية الزملاء. ثم مُنعت من حضور صفوف التشريح مع رفاقها الطلاب، فكانت تعطى جثة لتشرحها وحدها. وكم قضت من ساعات في البؤس والألم، هي والجثة والتحدي.

إلى جانب هذه الصعوبات وقف أبوها في صف المعارضة. هذه العقبات مجتمعة أوصلتها، ذات يوم، إلى قرار إلغاء الطب والانصراف إلى مهنة أسهل.

كانت تعالج هذه الأفكار حين التقت في الشارع متسولة وطفلها، وبينما مدت الأم يدها تستعطي، كان الطفل يتابع مداعبة ورقة ملونة فوق الرصيف.

تأملته **ماريا** بشغف، وشعرت بأن تحوّلاً يجري في داخلها، فدارت

على عقبها، وعادت إلى غرفة التشريح.

وتقول هي عن تلك التجربة: «**ربما كانت قصة عادية، لا تثير الاهتمام. لو أخبرتها للناس لما اكترثوا لها. إنما تلك المصادفة كانت وراء قراري متابعة الطب**».

* * *

ذات يوم مرضت **ماريا** مرضاً خطيراً، وشغل عليها بال المحبين. فكانت تقول لهم مطمئنة: «**لا تخافوا. لن أموت بهذه السرعة. فهناك اعمال تنتظرني**»...

وبالفعل، انتظرتها الاعمال المجيدة، وهي تعبر بوابة القرارات الصعبة، وتعاكس إرادة الأب، الذي لم يعد يكترث لما تفعله ابنته.

وكان من عادة خريجي الطب أن يلقوا محاضرات أمام لجنة الأساتذة. وعلم أبوها بمحاضرتها من صديق صادفه في الطريق وسأله: «**ألست ذاهباً لسماع المحاضرة؟**»

- **أية محاضرة؟**

سأل الأب، فأخبره هذا بأن ابنته سوف تتحدث أمام الأساتذة. وجره معه إلى القاعة. وفي نهاية الاجتماع، فوجئ الأب بالتهاني تنهال عليه من كل صوب...

* * *

وتخرجت **ماريا** عام ١٨٩٦ لتصبح أول طبيبة في **إيطاليا**. لكن مهنة الطب لم تحدد نشاطاتها. ففي السنة ذاتها حضرت مؤتمراً في **برلين** لدعم المرأة العاملة. وكانت في طليعة المحاضرات في مؤتمر آخر

في **لندن**. ووقفت تدافع بشجاعة عن الأطفال المستغَلين، والذين يستخدمونهم في مناجم صقلية. ودعمت حركة **الملكة فكتوريا** ضد استغلال الطفولة. إنما كان عليها أن تنتظر عشر سنين قبل أن ينفتح أمامها باب رسالتها الحقيقية.

ففي يوم، كانت تزور مركزاً للأمراض العقلية، لفت انتباهها وجود أطفال متخلفين بين المرضى. وقد أشفقت على وضعهم وسعت إلى مساعدتهم، وشعرت، بعبقريتها وحسها العلمي، بأن مكان هؤلاء ليس هنا. وحين اقتربت منها المسؤولة تشكو لها ما تعانيه بسبب اولئك المساكين، سألتها لتحدد الشكوى فقالت:

– لا يكاد هؤلاء البلهاء يتناولون طعامهم، حتى يرتموا فوق الأرض، باحثين عن الفُتات، ولا أعرف كيف أردعهم.

تأملت **ماريا** القاعة، ولاحظت كم هي فارغة. وأدركت للتو، أن هجوم الصغار على فُتات الخبز هو وسيلة لهو وسلوى، ليملأوا أيديهم بأي شيء، وأوضحت لتلك المسؤولة، أن مشكلة أولئك الاولاد هي مشكلة تربوية، لا مرضية.

* * *

وكان يوافقها الرأي طبيبان فرنسيان هما **أدوار سيغين وجان ايتارد**. وهذا الأخير، ألّف كتاباً عن الصبي المتوحش من **أفيروث**. فقد وجد الفتى في غابة **افيروث** في القرن الثامن عشر وأجرى عليه **إيتارد** تجارب تطويرية، ضمّنها كتابه الذي ارتكز عليه فيما بعد فيلم **فرانسوا تروفو**.

* * *

وجاءتها الفرصة في مؤتمر **تورين** عام ١٨٩٩ حين وقفت تدافع عن المتخلفين عقلياً. وتلقت دعوة من وزير التربية لتطوف وتحاضر حول هذا الموضوع في عدة مراكز تربوية.

وكانت النتيجة أن نشأت مدرسة للمتخلفين في منطقة **سان لورانزو** المكتظة بالسكان. واغتنمت فرصتها الذهبية، لإجراء التجارب والعمل مع أولئك الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والسادسة. وتوصلت إلى حقائق مذهلة، إذ صار الأطفال يتقدمون، وتوصل الطفل المتخلف إلى مستوى الطفل الطبيعي، حتى أن اللجنة الفاحصة لم تستطع أن تميز بين الفريقين.

بعد ذلك، صارت المدارس المونتسورية تنتشر في أحياء أخرى من **روما**. وبعدما أدارت المعهد مدَّة سنتين، قامت بتدريب معلمات يقمن عنها بهذه المهمة. وتقول في تجربتها هذه: «**كانت هاتان السنتان أفضل شهادة حُزْتُ عليها في فن التربية**».

* * *

وبينما ارتفع التصفيق، من كل صوب لهذا النجاح العجائبي، تابعت **ماريا** بحثها عن أسباب تخلف الاولاد الطبيعيين.

وفي العام ١٩٠١ أصبحت محاضرة في كلية **روما** للبنات، وتابعت، في الوقت نفسه، دراسة الفلسفة وعلم النفس، وكأنها، كما تقول: «**تعد نفسها لرسالة مجهولة**»...

اما دراساتها الطبية، فبدأت تنتشر منذ العام ١٨٩٦، وعينت في لجنة الامتحانات التربوية. كما أصبحت عام ١٩٠٤ أستاذة العلوم الاجتماعية في جامعة **روما**.

ويشكل العام ١٩٠٨ مرحلة هامة في حياة هذه الرائدة، إذ كان بدء انطلاق شهرتها في العالم كله. فالتجربة الهامة التي أجرتها في حي **سان لورنزو** لم تلبث أن أصبحت حديث المهتمين بالطفل والتربية، وهي مستمرة في ابحاثها، وتتبع الخط العجائبي.

وقد كتبت تصف نفسها آنذاك: «**بدأت أعمل مثل فلاحة أعدت البذار لأرض خصبة. لكنني كنت مخطئة، ولم أعلم أن ما في يدي هو حبات ذهب لا حنطة.**

وحكاية علاء الدين والفانوس السحري تجددت بين يدي».

* * *

ما هو ذلك الكنز؟

إنه الخصائص الطبيعية الكامنة خلف قناع الانحراف. لقد اكتشفت أن الأطفال يملكون طاقات ومواهب أكثر مما يقدر الكبار. وشعرت بأنها حررت الإنسان من قيود تكبله، وأعطت الوجود طفلاً جديداً.

أما الطريقة التي ابتكرتها **ماريا** لنبش الكنوز الدفينة في ذات الطفل، فتقوم على عدة معطيات. ومن الصعب أن نفصلها، ونحن نتحدث عن سيرتها. إنما أشير إلى بعض النقاط الهامة والتي ركزت عليها لدى تجاربها.

لقد اعتبرت الطفل طاقة قادرة على التعلم، إذا تهيأت له البيئة، وأُعد الجو المناسب. ومسألة التعلم انبثاق من الداخل، لا تلقين خارجي. وعلى المعلم أن يجهز البيئة، ويترك للطفل حرية الاكتشاف والتعلم بالعمل، وهو يراقب، ويتدخل حين تدعو الحاجة.

ولاحظت أن الطفل، من سن الثالثة حتى السادسة، يندفع بطبعه ليؤلف شخصية خاصة به على طريق تشغيل حواسه وعضلاته وطاقاته الفكرية والروحية. كما اكتشفت لديه مواهب استغلتها في تجربتها منها:

- **مقدرة الطفل الخارقة على التركيز.**
- **حبه للتكرار.**
- **تفضيله النظام على الفوضى.**
- **سعيه الى حرية الاختيار.**
- **تفضيله العمل على اللعب.**
- **ارتماؤه في الصمت.**

وقد نفت القصاص والمكافأة، حين لاحظت أن الطفل يتمتع بالعمل من أجل أن يعمل، ويملأ وقته ويشغل يديه.

ووقفت غير مصدقة ما اكتشفته من الطاقة الانضباطية لدى الطفل، وشعرت بأن أعجوبة حصلت على يديها.

* * *

وانتشرت طريقتها في العالم، مثيرة اهتمام الناس العاديين، وعلماء التربية والمجتمع. ويقال ان **مرغريتا ملكة سافواي** حضرت مرة إلى الصف لتراقب **ماريا** تعمل مع الأطفال.

وأخذت البعثات تفد إليها من عواصم أوروبا ثم من العواصم الأبعد. وخاف أصدقاؤها أن يضيع سر أسلوبها فيما لو حصل لها مكروه، فأصروا عليها طالبين أن تسجل أفكارها في كتاب، وهكذا

نشرت كتابها الأول «**طريقة مونتسوري في تعليم الأطفال**» وترجم الكتاب فوراً إلى ما يزيد على العشرين لغة. وصار البريد يحمل إليها الأسئلة والتعليقات من كل صوب. كما تلقت دعوات من عدة بلدان لتنشئ مؤسسات تحمل اسمها.

* * *

وقد لبت دعوة أميركية لتحاضر في الجامعات، وكانت أول محاضرة لها في قاعة **كارنجي** حيث حضر خمسة آلاف شخص، بينما بقي المئات خارج القاعة. واضطر حراس الفندق الذي نزلت فيه أن يردوا الزوار. وقد اعتمد بعضهم أساليب طريفة ليحظوا بمقابلتها، إذ حملوا صناديق، متظاهرين بأنهم خياطون أو تجار ينقلون إلى **ماريا** أغراضاً طلبتها. ومن أطرف ما حدث في تلك الرحلة، إقامة قاعة مسورة بالزجاج عرضت فيها صورة حية عن عملها مع الأطفال، بينما الناس يتفرجون وكأنهم في مسرح.

وقُدمت لها خلال تلك الرحلة عروض مغرية، رفضتها كلها، مفضلة أن يتولى تلامذتها متابعة طريقتها، التي عرفت كسوفا، على اثر الحرب العالمية الأولى، في أميركا، لتعود فتنتعش من جديد بعد الحرب الثانية.

* * *

وبالطبع، لم يقتصر انتشار الأسلوب المونتسوري على أوروبا وأميركا، بل تعداهما إلى **الهند**، **وأوستراليا وروسيا والصين واليابان**. وقد عاشت، بعد ذلك، سنين عديدة في دول الشرق الأقصى، تطبق نظرياتها عملياً.

وفي الهند التقت **طاغور**، **والمهاتما غاندي ونهرو**، وكانت قد اجتمعت من قبل، في أميركا، **بتوماس أديسون وهيلين كيللر**.

وحيثما ذهبت، كانت تقام لها الحفلات والاستقبالات الملكية وتقلد الأوسمة، وميداليات الشرف.

لكن عملها تضاءل في وطنها الأم، **إيطاليا**، مع بدء العهد الفاشي، أيام **موسوليني**، فانتقلت إلى **هولندة** وجعلت **امستردام**، مقراً دائماً لانطلاقها. وفي العام ١٩٤٨ دعتها الحكومة الايطالية، لترجع إلى الوطن، وتمارس العمل بحرية، لكنها كانت قد نشرت أفكارها مع رياح الأرض في كل اتجاه، كما انشغلت بحضور مؤتمرات عقدت باسمها وبرئاستها في **هلسنكي**، **نيس**، **امستردام**، **روما**، **أوكسفورد**، **كوبنهاغن**، **أدنبره** ثم في **لندن**، حيث كان آخر مؤتمر في حياتها...

وكان يرافقها في هذه الرحلات كلها **ابنها ماريو مونتسوري** الذي عينته خليفة لها على رأس المؤسسة المونتسورية.

* * *

حين توفيت ماريا، في ٦ أيار عام ١٩٥٢، ماتت قريرة العين مطمئنة إلى انتشار أفكارها، برغم معارضة بعض طلابها، الذين أخذوا عنها، في البدء، ثم انشقوا، وساروا في اتجاهات جديدة.

ومن أهم الأفكار التي ركزت عليها المرأة الذكية، الجميلة، والشديدة الحيوية، هي دور الطفل في خلق عالم أفضل يعم فيه السلام، ومقدرة الإنسان على التغلب على الكثير من سلبيات الوجود إذا ضاقت الشقة بين عالمي الكبار والصغار.

أما الضعفاء والمعاقون، فكان لهم في صدرها حنان الأم المعطاء.

وبفضلها، يجد الأطفال، مناسبات أفضل، لأن يعبروا عن أنفسهم بحرية، وسط عالم متفجر، يحتاج إلى الكثير من الوعي والحكمة ليصبح عالمهم الحقيقي - عالم السلام.

- ماريا مونتيسوري حياتها وأعمالها تأليف: مورتيمر ستاندينغ.
- الموسوعة التربوية.
- أسلوب مونتسوري - ترجمة آن جورج.



املي كار



«الأفضل للفنان أن يعمل في كنس الشوارع أو خدمة المنازل من أن يخفض مستواه».



يعترضك اسمها، كيفما توجهت، في مقاطعة «**كولومبيا البريطانية**» في **كندا**.

إنها فنّانة عملاقة، عاشت متوحدة، مكرّسة حياتها للفن... باللون، قبل أن تتحوّل الى الكتابة. وقد عُرفت في المجتمع بأنها صاحبة الشخصية الغريبة؛ ورُويت عنها حكايات اسطورية، بعضها من تأليفها...

ملأت كل لحظة من لحظات عمرها، فلم تعرف الضجر. وكان تركيزها على العمل، والعلاقات الانسانية، وكتبت بسخاء ووضوح عن تجاربها...

ثلاث روابط كانت تربطها بالوجود، وظلّت مصدر وحيها والهامها: علاقتها بالله، صداقتها مع السكان الأصليين، (الهنود الحمر) او من تبقّى منهم في مقاطعتها، ثم عشقها المطلق للغابات الوحشية الشاسعة. هذه هي، باختصار، الفنانة **املي كار**.

* * *

اعطت فنا انطباعيا، ليس فيه تجديد، انما هو فنٌ قوي وعنيف. وجديدها كان في الرؤيا لا في الاسلوب. وربما بسبب ذلك، انحصرت شهرتها ضمن حدود بلادها.

كانت لها علاقة خاصة، ونظرة مميزة الى الطبيعة وحياة الهنود.

واستطاعت بما رسمت، ان تلفت الانظار، وتجعل الآخرين، يأخذون بوجهة نظرها.

ارتبطت اعمالها الفنية بالطبيعة، خصوصا بالغابات. كما بدأت باكرا، تهتم بحياة الهنود، بفنّهم، وتقاليدهم. وقد خلّدت ذلك في لوحات تنتشر حاليا في اهم متاحف **كندا**، وتعتبر تراثا مهما... ولم تنتظر الفنانة ان يكتب عنها الآخرون، فقد كانت هي شاعرة وكاتبة، وسجلت مراحل حياتها الفنية والانسانية في حالات الضعف والقوة، الفشل والنجاح... وجعلت كُتّاب السيرة (الذين اهتموا بدراستها ووضعوا عنها عدّة مؤلفات) يعتمدون، في الدرجة الاولى، على مذكراتها...

ابوها **ريتشارد كار**، بريطاني هاجر الى **كاليفورنيا** حين كان الناس يلاحقون جنون الذهب. وقد حصّل ثروة لا بأس بها، حملها، وسافر مع زوجته النحيلة وابنتيهما، الى الشاطئ الغربي من **كندا**، واستقر في مدينة فكتوريا، وبنى فيها دارا فخمة.

لكن هذا الاب كان مغامرا، يهوى السفر؛ وتنقّل بين عدة بلدان. وكان يعتبر المدن مكانا موقتا؛ لكن ذلك لم يمنعه من توظيف أمواله في اعمال وعقارات. ثم خطر له ان يعود الى وطنه الاول؛ لكنه اكتشف، بعد التجربة، أن العودة مستحيلة. وقد باتت هناك مسافة زمنية تفصله عن اهل بلاده. فعاد الى الهجرة من جديد. وكانت العائلة تنمو باستمرار، اذ اضيف اليها ثلاث فتيات وولد. **واملي** اصغر الاخوات، ولدت في ١٣ كانون الاول عام ١٨٧١ . وكانت اشبه بدمية، تتسلّى بها الاخوات الاكبر منها؛ خصوصا وان الام باتت شبه

مقعدة، وظلّت تلك حالها طوال عشر سنين، الى ان توفيت **واملي** في الخامسة عشرة من عمرها.

* * *

نشأت الفنانة في بيئة تغمرها بالمحبة. فقد كانت طفلة ممتلئة الجسم، ذات عينين رماديتين. وهي المفضلة لدى ابيها، ترافقه في زياراته، تقفز حوله كالارنب، كلما خرج الى الطبيعة. والطبيعة حول دارهم غنية، جميلة في كل الفصول. كانت هناك الغابات، والبحيرات، والحدائق المزهرة. والطفلة لا تهتم بالعاب الأولاد، بقدر اهتمامها بتسلّق الجدران والاشجار، كي تراقب العصافير. وكانت تتوق الى احتواء كل المخلوقات البرية في راحة يدها.

بدأت رغبتها الفنية باكرا. ودرست القواعد الأولى للرسم، ثم لم تعد تتوقف. ومن بين اللوحات المحفوظة لها واحدة تمثل وجه ابيها، وقد رسمتها وهي في سن التاسعة. وكانت اختها **اليس** تميل مثلها الى الفن، وترسم بالالوان.

بقيت علاقة **املي** بوالدها، قوية، حتى مطلع سن المراهقة؛ حين حدث ما نفرها من الوالد، وقد كتبت في مذكراتها: «**لن اغفر له طريقته في الشرح الوحشي والفجّ، بدلاً من ان يتحدث بلطف...**» ولم توضح اكثر من ذلك. وتركت لمن شاء ان يفهم. وقد تحوّل حبّها له الى كراهية. ولم تفهم امها ردّة فعل النفس الحساسة، فوقفت ضدها، ونعتتها «**بالغراب الاسود**» و «**بالطفلة المشوشة**». وكانت تصارع شعورا مزدوجا: فقد اكتشفت الرياء في شخصية الوالد، كما وقعت فريسة لتعذيب الضمير بسبب مُناصبته العداء.

بعد وفاة امها، صارت تقضي عطلة الصيف مع عائلة صديقة. وشكّل ذلك مهرباً ملائماً، بل واحة رجاء. اما الاب، فقد سقط في اليأس، على اثر وفاة زوجته، وراح يستعد لمواجهة ربّه: فباع كل املاكه، سوى البيت... وعام ١٨٨٨ انتقل الى رحمة ربّه. مخلّفا ثروة وزعها بين الاولاد، واسقط اسم **املي** من الوصية. وفي تلك السنة بالذات، تخرّجت هي من المعهد العالي وكان تصنيفها في الرتبة الحادية عشرة، من اصل ثلاث عشرة طالبة.

* * *

الى جانب الدراسة العامة، كانت قد بدأت دراسة جدّية للرسم على يد فنان فرنسي وزوجته. لكنها لم تلبث ان تحوّلت عنهما، وباتت تنتقد اسلوبهما، وتابعت الرسم وحدها. وتوصلت ذات يوم، الى اقناع الوصي الذي عيّنه الوالد، بعد وفاته، ان يسمح لها بالسفر الى **كاليفورنيا** لتدرس الرسم في معهد متخصّص. وقد سافرت بحرا في صيف ١٨٩١ . وكان اساتذة المعهد من خريجي معاهد الفنون الفرنسية: لكنها لم تحظ بأي تمييز لدى تخرّجها: انما اكتسبت خبرة هامة ونضجا في الشخصية، وادركت أن مستقبلها هو في الفن... وحين عادت الى منزل العائلة، في **فكتوريا**، اكتشفت أنها باتت مختلفة عن اخواتها، في المنهج والذوق. وهي لا تشاركهن في العمل المنزلي، الموزع بين الجميع. كما وجدت الاخ الوحيد، في مصحّ للامراض الصدرية.

* * *

وسط هذا الجوّ المشوّش والقاتم، بدأت تُعلّم الرسم للاولاد، بينما ظلّت تتابع رسمها الحرّ، واشتركت في احد المعارض، فنالت الجائزة الاولى، ومؤشرا زادها اصرارا على المضي في خطّها.

عام ١٨٩٥ قامت باول رحلة لها الى الأحراج، وبدأت ترسم الطبيعة. كما تعرّفت الى حياة الهنود الحمر، واعجبت بها، خصوصا بالحياة الطبيعية التي يعيشونها. واكتشفت بأنّ تدخّل الرجل الابيض، اضرّ بالعلاقة المنسجمة المتناغمة، بين حياة الهنود، والطبيعة...

في تلك الفترة، دخل حياتها صديق استطاعت ان تعبّر له عن ازمتها النفسية. اسمه **وليم مايو بادون**، وكان اصغر منها باربع سنوات. وقد اصغى اليها جيدا. وتعلّق بها. لكن تلك الصداقة لم تمنعها من السفر من جديد، والى بلاد اخرى، في مطاردة الفن.

كانت وجهتها **بريطانيا**، وقد وصلتها صيف ١٨٩٩، ودخلت **معهد وستمنستر** للفنون، واعتبرته افضل المعاهد. وقد زارها **مايو** في لندن، وضايقها بملاحقته والحاحه في طلب الزواج. وكانت هي في عالم آخر، بعيد عن عالمه: فهي منهمكة في دراستها، متوجّهة الى هدف مختلف عن هدفه. ولما رجا منها ان تبقى صديقة، فقط، مثلما كانا، رفضت. فكانت ردّة فعله ان احرق رسائلها. لكنه لم يستطع ان يتخلّص من حبه لها او ان ينساها. وظلّ يزور اخواتها. وبالطبع تأثرت من تصرفه، وتثبت في ما بعد، في مذكراتها: «**ان المقتول لا يتألم مثل القاتل**».

لكن **املي** احبّت مرة واحدة، واسم الحبيب **سامي بلايك**. عير

انها ظلّت بعيدة عن فكرة الزواج، اذ كانت تخشى الاقتراب الحميم من اي انسان، وفضلّت التركيز على الفن.

* * *

لم تكن حياتها في المعهد سعيدة، اذ تبلّغت نعي اخيها. واجرت عملية لبتر ابهامها. وهذا حدث لم تسجله في مذكراتها. ومن بين الاساتذة الذين عملت معهم، كان هناك استاذ من اصل سويدي، يهيم بالبحر، ويقود الطلاب الى الرسم على الشاطئ. وكانت **املي** تشعر بالضيق، وتهرب الى الغاب. وهنا بدأت علاقتها برسم الغابات، تنمو وتترسّخ.

وفي العام ١٩٠٢ اصيبت بمرض اقعدها وجعلها تصل الى قيد شعرة من النهاية. وبينما كانت تصارع المرض، بلغها ان **سام** تزوج في **جنوب افريقيا**، انما كان زواجا تعيسا، سبّب له انهيارا عصبيا. وزاد ذلك في اعراض مرضها، الذي شخّصته الاطباء بأنه «**هيستيريا**»؛ وكان مرضا شائعا في مطلع القرن؛ اما اعراضه عندها فكانت نوبات بكاء، وخدر في الساق اليمنى، وتعثّر في الكلام. ومعنى ذلك ان المشاعر المكبوتة، تحوّلت الى اعراض مرضية جسدية.

وحين غادرت المصح في ١٧ ايار عام ١٩٠٤ كانت قد تحوّلت، وفقدت نضارة الوجه، وبدت اكبر من سنّها.

* * *

اقامت في مدينة **فانكوفر**، وبدأت تدرّس الرسم في ناد للسيدات. وبالطبع كانت تقبل على عملها بكل الجدّ والاهتمام، بينما تقصده السيدات لتمضية الوقت. لهذا لم تتمكّن من العمل اكثر من شهر

واحد، وكتبت في ضوء التجربة: «**قررت ان ابتعد، ما امكنني ذلك، عن تعليم الكبار، واركز اهتمامي على تعليم الاولاد**».

واقبل الاولاد على محترفها: وانغمست معهم في عمل لذيذ وشيّق، وضعت فيه عقلها وقلبها. وخلقت جوا مريحا، فكانت تغني، او تروي الفكاهات ولم تلبث ان ذاعت شهرتها، خصوصا وأنها نهجت خطا جديدا في التعليم الحرّ، من دون قيود. وبلغ عدد التلامذة خمسة وسبعين، وكانت تنتقل مرّتين في الاسبوع، كي تُعلّم في معاهد خاصة. وقد اثار المعرض الاول الذي نظمته لطلابها، ضجّة كبرى، لفتت اليها الانظار. واعتبرت تلك المرحلة، من اسعد ايام عمرها.

وبما انها كانت مُلزمة بالبقاء قرب الطلاب، فقد انقطعت عن الخروج الى الطبيعة، والغابات. وظلّت تحلم بان تتمكن في يوم، من الانصراف الى رسم الهنود الحمر، وقراهم، خصوصا اعمدة «**الطواطم**» التي يقيمونها في الساحات، وامام واجهات المنازل. وهي اعمدة يحفرون عليها وجوها واقنعة، ويعتقدون أنها تحرسهم وتردّ عنهم الاذى.

* * *

كانت رائدة في مجال اختيارها رسم الهنود، والعيش بينهم. واعتبر الناس تصرّفها هذا غريبا؛ وزادهم عجبا بُعدها عن الناس، واقتناؤها كل اصناف الطيور والحيوانات، من الفئران الى الصقور.

لم يكن شيئا مألوفا ان تحتار امرأة بيضاء، متحدّرة من اصل انكليزي، العيش بين الهنود، ودراسة حياتهم، والاعجاب بحضارتهم.

وكانت تنقل القصص والاساطير الى تلامذتها، فيجدون فيها عالما جديدا غريبا عن مفهومهم. وقد كتبت عن تلك المرحلة: «**في تلك القرى البسيطة، يبدو كل شيء وكأنه يفتح لي ذراعيه، ويغمرني بحنان**». ووصفت حياتها تلك في مذكراتها بكثير من الحنين والشاعرية: «**كانت لي خيمة صغيرة فوق صخرة مُحاطة بالاشجار الكثيفة. وكانت ترافقني مجموعة طيوري وحيواناتي. تجلس معي حين ارسم. تنتظر مواعيد طعامها... حاولت ان اطلق الصقر، لكنه رفض حريته**».

وحظي كلبها «**بيلي**» بكل الدلال. فقد رسمته وكتبت له القصائد. اما الصداقات الانسانية فمع جماعة الهنود. وكانت لها صديقة مميّزة اسمها **صوفي** تعرّفت اليها حين حملت لها سلّة كرز، وطلبت منها بعض الثياب المستعملة. وصارت كلما احسّت بالوحدة، او الضيق، تزور **صوفي** في بيتها الصغير، وتتحدث اليها بما تيسّر من كلمات هندية، كما علّمتها الانكليزية.

* * *

حين توفّر لها مبلغ من المال، يساعدها على السفر، قصدت **باريس**، للدراسة، وعاشت فيها عامي ١٩١٠ - ١٩١١ . استاذها **هاري جيب** عرّفها الى اجواء باريس الفنية. وكان صديقا لكبار الفنانين امثال **ماتيس، وبراك وجرترود شتاين**. وفي تلك الفترة كانت باريس محجة الفنانين من كل اقطاب الكون. وانفتح لها عالم جديد هي متعطشة الى رشف كل قطرة من مياهه، كي تعوّض من سنوات بُعدها عن المراكز الفنية الاوروبية. لكن الم الرأس الذي ضايقها حين

كانت في **لندن**، عاودها. ودخلت المصحّ لمدة خمسة اسابيع. ورأى طبيبها ان: «**هناك شيئاً في المدن، وفي المحترفات المقفلة، لا يلائم طبيعة الانسان الكندي، القادم من البراري الشاسعة، كأن تقتلع شجرة صنوبر شامخة لتغرسها في حوض من فخار**».

برغم المرض، استفادت من اقامتها في العاصمة الفرنسية، وزادتها انفتاحا وعمقا، وفهما لماهية فنها. ورجعت الى بلادها، اشدّ حماسة من السابق، لمتابعة رسم الهنود. وكانت تحمل معها آلة تصوير، كي لا تفوتها تفاصيل «**الطواطم**» والاعمدة المنقوشة. وتشكل مجموعتها الكبيرة، والفريدة، شهادة هامة على «**حضارة في طريق الزوال**». وهي، الى جانب اهميتها الفنية، ذات اهمية تاريخية، لأن هنود هذه الايام لا ينقشون الطواطم، وقد دخلوا في حضارة الرجل الابيض، وان احتفظوا ببعض حرفهم اليدوية.

* * *

اطلّت الحرب العالمية الاولى، والفنانة في طور السعي، والتحضير. ولم تكن قد حصلت على شهرة تخوّلها بيع لوحات بثمن محترم، يمكنها من العيش براحة. لذلك فتحت بيتها للإيجار. وكانت تعدّ بنفسها طعام المستأجرين. وهذه تجربة قاسية جدا، خصوصا اذا عرفنا صعوبة تعاملها مع الناس... وحين لم تعد تطيق الحياة، هربت الى مدينة **سان فرانسيسكو** لفترة، ثم عادت وقد تحسنت نفسيتها. ووجدت عملا في احدى المجلات الاسبوعية. عام ١٩١٤ وضعت خطا بين رسم الهنود وبدء انصرافها الكلي الى رسم الطبيعة. كما بقيت مجموعة الاعمدة والطواطم مكدّسة في قبو المنزل، لا تجد من

يقدرها، حتى سمع بها هاو للفنون، اسمه **مورتيمر لامب**، فزارها، ودهش بهذا العمل الفني الفريد، ودفعته حماسته الى الاتصال بالمتحف الوطني، كي يشتري بعض لوحات الهنود. الا ان مسعاه فشل. وطلب بعض اصدقاء الفنانة ان تشترك في معرض اقيم في مدينة **سياتيل** الاميركية، وربحت الجائزة الاولى، وكانت نقطة البدء على خط شهرتها.

* * *

في صيف ١٩٢٧ قام مدير المتحف الوطني **إريك براون** وزوجته **مود** بزيارة الشاطئ الغربي، ليلقي محاضرات، ويجمع بعض اللوحات لمعرض يقيمه، واتصل بها، بعدما سمع الكثير عن لوحاتها؛ وكان ردها العفوي الرفض. لكنه ألحّ عليها بأن تسمح له بزيارتها. فنزلت عند طلبه. ويذكر بأنه حين طرق بابها، استقبلته امرأة قصيرة، سمينة، حذرة. لكنها تخلّت عن حذرها بعد التعارف، فقادته مع زوجته الى محترفها، وعرضت عليهما اعمالها كلها، سوى المجموعة الهندية. ذلك ان الرفض السابق لقبول تلك المجموعة، جعلها تقفل دونها الابواب. لكنه هنا، لهذه الغاية. وعاود إلحاحه.. وفتحت له باب القبو، وكانت المفاجأة التي اذهلته. فقد وقف مدهوشا امام قوة تعبيرها واصالة فنّها... وأبلغته انها توقّفت من زمان، عن رسم هذا اللون، اذ لا احد يهتم به. وحين غادر **براون** منزلها، كان يشعر بأنه اكتشف كنزا حقيقيا.

* * *

وكان لها لقاء هام مع **لورين هاريس** اهم فناني **كندا**. واعجبت باعماله، كما ابدى تقديرا كبيرا لفنها. الذي قدّر له، الآن، ان يزور اهم معارض ومتاحف المدن الكبرى.

كانت تلك مرحلة الشهرة. فقد انتشرت لوحاتها، وحظيت بالتقدير الذي تستحقه، وهذا ما جعلها تعود الى المزيد من العطاء. وبدت امرأة سعيدة، واثقة بنفسها اما الصداقة الفكرية والروحية التي نشأت بينها وبين **هاريس** فقد غذّت اعمالها، ومدّتها بحماسة جديدة، فانصرفت، بكل وجودها، ووجدانها، الى رسم الغابات. كانت تقصدها، مصطحبة كلبها وعدّة الرسم والكتابة. وصارت تنام في بيوت الاصدقاء القريبة من الغابة، كي لا تضيع الوقت في التنقل. وفي احدى المراحل، اشترت بيتا نقالا، اقامت فيه، عند اطراف الغاب.

* * *

الفنانة ناضجة، وفي اوج العطاء. وهذه العلاقة الصوفية التي تربطها بالطبيعة، دفعتها الى التساؤل ابعد من حدود المرئيات. كانت تبحث عن القوة المحرّكة، والمبدعة. ولم يفتها أن ما تشهده، وترسمه هو الدليل الساطع على عظمة الخالق.

وعلى الطرف الآخر من خط اتصالها بالآخرين، يقف **هاريس** منتظرا، مشجعا، يراقب تقدمها، ويسجل شهادته: «**اني شديد الاعجاب بكل ما تعطيه تلك السيدة...**».

اما هي، فكتبت عبارة تختصر موقفها من فنها: «**من الافضل للفنان ان يعمل في كنس الشوارع، او الخدمة في المنازل، ولا**

يخفض مستواه، لان العمل اليدوي الوضيع قد يعكّر مزاجك الى حين، الا انه لا يقزّم روحك».

وروحها طليقة حرة، ترف بين الفيافي، وفي اجواء الصفاء المطلق.

* * *

احست بأنها تفور وتغلي. ولم تعد الالوان تكفيها للتعبير، فانكبّت على الكتابة، لان «**الكتابة تساعد الرسم كما ان الرسم يساعد الكتابة، ويزيد توضيح الصور في عقولنا..**».

واختار مقطعا من ادبها، يرسم صورة لشخصيتها وموقفها من الوجود: «**انت، ايتها الجبال. اجثو عند اقدامك، بتواضع. ابتهل اليك، كلّميني بصمتك. اعلن لك اخوّتي، فنحن من مادة واحدة، اذ هناك مادة واحدة في الوجود. هناك إله واحد. حياة واحدة تمتد في عروق الجميع. فالذي جبلني صنعك أيتها الجبال. وانت، يا اب الجميع، ارفعني الى مستوى من الوعي، كي اتحد بالوجود. ساعدني، لاقوى على التعبير، بمشيئتك..**».

* * *

عملت من العام ١٩٣٣ حتى ١٩٣٧ بعنف، وانتجت لوحات وكتبا، زادتها شهرة وتألقا. لكنها ارهقت نفسها الى حد اصابتها بنوبة قلبية، اقعدتها عن العمل الى حين، واضطرتها الى ان تتخلى عن الاصدقاء المفضلين (الطيور والحيوانات) اذ لم تعد تتمكن من العناية بها، فطلبت، قبل مغادرة المستشفى، ان توزع مجموعتها بين

الاصدقاء. وعادت الى بيت فارغ، بارد، فقد دفء الحياة، ومرح النغم والحركة. لكن اخبار مرضها، جعلت المتاحف والمعارض، تتهافت على شراء اعمالها. وراح المال يتدفق عليها. وساعد ذلك في شفائها، ورفع معنوياتها. ولما اصرّت على العودة الى الرسم، سمح لها الطبيب بذلك، شرط ان تبقى في السرير.

لكن هذا ليس الوضع المثالي، ووجدت انها تستطيع الكتابة بسهولة، بينما الرسم يحتاج الى المدى. وهكذا، وضعت معظم اعمالها الادبية بين السن الثالثة والستين والحادية والسبعين. في ١٣ كانون اول، عام ١٩٤٠، اقيم احتفال لمناسبة صدور كتاب جديد لها. حضرت وفي ظنّها انها ستجد حفنة من الناس، لكنها فوجئت بجمهور غفير، وبمحاضرات، وسمعت المديح والتقدير، لفنّها وادبها. وكان بين الرسميين الذين حضروا، ممثلون عن الهنود، شكروها على كل ما فعلت لهم، خصوصاً صداقتها التي بدّلت في كثير من العلاقات والمفاهيم.

وقد نالت جوائز على كتبها، مثلما حصلت على جوائز فنية. واعتبرت تلك المناسبة حفلة وداعية.

* * *

لكنها لم تكن مستعدة للرحيل. ففي الروح تتقد شعلة العطاء والابداع. وطلبت من بعض الاصدقاء ان ينقلوها الى العابة، لترسم. وكانت تقضي اسبوعا، ثم تشعر بالارهاق، فتعود حاملة لوحاتها، وتعب السنين...

تكررت زياراتها الى المستشفى، والغاب، الى ان منعها الطبيب

نهائيا من الخروج. وهذا ما جعلها تكتب الى احد الاصدقاء: «**ارجو ان تصلّي لكي اموت ميتة سريعة**».

* * *

اشرف على تنقيح كتبها **إيرا ديلوورث**، الذي اعتبرته اقرب الاصدقاء في اواخر ايامها، وائتمنته على اعمق اسرارها. وكان سهلا ان تنشأ تلك العلاقة معها، من مسافة بعيدة. وفي ربيع ١٩٤٤ عرفت ما يسمى «**صحوة الموت**» اذ تحسنت صحتها فجأة، وشعرت بقوة غريبة، تعود اليها، وتدفعها الى مزاولة الرسم. وكان منظرها، لدى خروجها الى الحديقة العامة، على كرسي نقال، ملفّعة بحرام الصوف، يثير الشفقة. لكنها ليست المرأة التي تهتم لما يقوله فيها الآخرون. ففي السراج بقية من زيت، شاءت ان تحرقها لتنير محيطها.

وقد حدث امران هامان في تلك السنة، اذ نشر لها كتاب ناجح، وبدأت لوحاتها تباع خارج المتاحف والمعارض الرسمية. والرجل الذي اهتم بتسويق اعمالها هو **ماكس سترن**. واذا تذكرنا أنّ تلك كانت من ابشع سنوات الحرب، ندرك أنّ الفنانة قد بلغت اوج الشهرة وحققت انتصار العمر.

لكن الصحوة لم تطل، فعادت الى المرض من جديد. ولم تكن تخاف الموت، بقدر ما كان يقلقها ان تفقد وعيها.

* * *

عام ١٩٤٥ بدأت تستعد لملاقاة ربّها، فقامت بتوزيع بعض لوحاتها على الاصدقاء. واجرت فحصا دقيقا لكل ما تجمّع لديها من رسائل، واشياء خاصة، وضعتها في صندوق، تمّ دفنه في حديقتها

المختارة، حيث كانت ترسم. ولم يعثر على هذا الصندوق فيما بعد... كذلك اتلفت قصصا غير منشورة، وكتبت وصية بخصوص توزيع لوحاتها: «**لوحاتي كلها تخصني تُباع لتغطية نفقات دفني وما تبقى من المال يرصد لتعليم طلاب الفنون**».

وفي جولة لاحقة، قامت بإتلاف وحرق قسم كبير من اللوحات والمخطوطات.

وكانت تقاوم المرض، واحتقان الرئتين، حين بلغها ان جامعة «**كولومبيا البريطانية**» منحتها دكتوراه آداب، فكتبت بسخرية: «**البطة القبيحة، وجدت، بالتالي، من يقدّرها..**» لكنها كانت فخورة باللقب. وبعد ثلاثة ايام توفيت، أي بتاريخ ٢ آذار، عام ١٩٤٥ . كتبت الى صديقها **ديلوورث** في آخر رسالة، تَنْعَى نفسها: «**فجأة يُسمع قليل من البكاء. ثم تُرش باقات الزهر، ويواروني الثرى...**».

ومع موتها، انكشف حجمها الحقيقي، فنانة عبقرية. وراحت المتاحف وصالات العرض تتخاطف اعمالها. وقد بقي منها الكثير، على رغم الاتلاف والحريق...

- املي كار؛ سيرة حياة، بقلم ماريا تيبيث منشورات بنْغوين.



ويـللا كاثر



«الفن ينبع من عناصر الحياة».


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيرتها تعيدنا إلى حكايات البطولة التي نقرأها في الروايات الممتازة. فيها الواقع، والخيال، والحقيقة، وما هو أبعد من الحقيقة المعروفة.

وإذ أَختار **ويللا كاثر** لأضعها على قائمة النساء الرائدات، فلأني أقدر دورها الرائد، لا في الأدب الروائي الأميركي فحسب، بل وفي الحضور الإِنساني البهي والشجاع. وقد لفتني إلى اختيارها طابع بريدي يحمل صورتها، أصدرته وزارة البريد في الولايات المتحدة، تكريماً لهذه الأديبة المميزة، مع مجموعة من طوابع تحمل وجوه الكبار من كتّاب أميركا أمثال: **ثورو، املي ديكنسون، جون شتاينباك ويوجين أونيل** وسواهم. ولاحظت أن المجلة شبه الرسمية التي عرضت هذه الطوابع، فوق صفحاتها، أعطت وجه **ويللا** حجماً يساوي أربعة أضعاف الحجم الذي خصت به الآخرين، فلماذا...؟

* * *

طبعاً ليس السبب جمال وجه الكاتبة (مع أنها كانت ذات جمال خاص وفريد...) ولا لتفوقها على الآخرين في الابداع، برغم أنها كانت كاتبة «**من الدرجة الأولى**»... وبالطبع كل واحد من أولئك الكتّاب المكرمين له مكانته المميزة.

إنما الذي يصنفها، ويضعها في المقدمة، هو دورها الريادي الهام. وإذا كانت الرواية المكتوبة بقلم نسائي قد نالت **جائزة نوبل مع** «**بيرل**

س. **باك**»، واحتلت مكانتها الفنية الراقية مع «**فرجينيا وولف**»، فإنها مع **ويللا كاثر** كتبت «**بلحم ودم السنوات**» حسب تعبير هذه الأديبة التي اعتبرت الكتاب «**الشباب المحترق بعد الموت... وإنه لك وحدك...**»

ولدت **ويللا** في السابع من شهر كانون الأول، عام ١٨٧٣، في **فرجينيا**، وكان لها من العمر تسع سنوات حين قرر أبوها **تشارلز** أن ينتقل مع عائلته إلى **نبراسكا**، هرباً من رطوبة الجو الذي لم يكن ملائماً صحة ابنته، وسعياً وراء عمل أفضل يعوضه من مزرعة الأغنام التي احترقت، وأوقعته في خسارة مالية كبرى... وكان الأب من أصل **إيرلندي**، كذلك زوجته **فرجينيا**، السيدة الأنيقة التي لا تخرج من غرفة النوم، قبل أن تنهي زينتها، حتى إذا واجهت أولادها أو أي واحد من أفراد الأسرة، يظنها ذاهبة إلى حفلة فاخرة.

هذه الأم احتفظت بأناقتها وقوامها الرشيق، برغم سبع ولادات... وكانت **ويللا** كبرى الأخوة والأخوات. ومع أن الكاتبة لم تغفل أناقة أمها، إلا أن عاطفتها وإعجابها الأول كانا حصة الأب، ثم الأجداد، الذين لعبوا دوراً هاماً في الحرب الأهلية.

وكانت **ويللا** تفخر بأنها ورثت عن أبيها لون عينيه الزرقاوين، والبشرة الوردية.

إلى جانب اشتغاله في تربية الأغنام والزراعة، كانت للأب هواية فكرية، فقد أسس مع «**لجنة الثمانية**» صحيفة يومية؛ وبذلك وضع، أمام ابنته البكر، الحجر الأول، كي تخطو فوقه باتجاه هدفها.

لكن الكاتبة تجاوزت، فيما بعد، هذه الخلفية وارتفعت بينها وبين أبويها جدران الاغتراب والفراق.

ولم يقدر أبوها أن يدرك معنى شهرتها، حين بلغت أوجها. كما ظل في حياتها سوء تفاهم مع أمها المتكبرة، التي تعطي المظهر أهمية كبرى، من دون أن تهمل شؤون العائلة، وفي مقدمة الاهتمامات موهبة الابنة البكر.

فالأم كانت أول من اكتشف موهبة **ويللا**، وشجعتها على دخول الجامعة، كي تنمي طاقاتها الفكرية، وتوسع أفقها. لكن الفتاة البوهيمية المتمردة، ورافضة كل التقاليد، وضعت آراء أمها في عداد الأمور المرفوضة. وبينما كانت الأم فخورة بها، تريدها أن تظهر في المناسبات الاجتماعية، مرتدية الأزياء اللائقة بها، والتي لا تحيد عن الخط الكلاسيكي المتبع لأناقة تلك الحقبة، فقد تابعت الابنة تمردها، وظلت أشبه بنبتة برية، لها سحرها، وجاذبيتها، وسلوكها الخاص، الذي يجعلها تقف وحدها، غير مقلدة لأحد...

وأمها كانت لا تطيق الألوان الفاقعة تضيفها الابنة إلى ثيابها، وفي مقدمتها اللونان: الأحمر والأخضر، بينما لها هي ألوانها الهادئة، والقبعة الفخمة، وباقة البنفسج بين اليدين.

وفشلت الأم مرة تلو المرة في تدجين ذوق ابنة، طويلة القامة، قصيرة العنق، ذات شعر أحمر؛ وتختار لباسها بقصد الراحة، لا المباهاة. كان لا بد من إيراد هذه التفاصيل، كي تكتمل اللوحة الخارجية لشخصية الكاتبة...

وبرغم الخلاف الظاهر، والذي دام العمر كله، مع الوالدة، فقد

ظلت **ويللا** تغدق على أمها الهدايا الفاخرة، في المناسبات، من حلى وعطور وثياب... بينما كانت الأم تختار هداياها للصديقات كتب الابنة، مذيلة بكلمة خاصة مع التوقيع.

* * *

نعود إلى بدء الكاتبة، كي نتابع رصد العوامل والمؤثرات التي دفعتها إلى اختيار الكلمة، واسطة الحوار مع الحياة، وبالتالي مع العالم الأوسع من حولها.

فقد انهت دراستها الثانوية، ثم دخلت جامعة «**نبراسكا**»، وهنا، بدأت تكتشف موهبتها الأدبية. وحين تخرجت عام ١٨٩٥، انصرفت إلى العمل في الصحافة، بعدما امضت ستة أشهر في البطالة. ومن ثم انتقلت إلى التعليم، من دون أن تتوقف عن الكتابة.

وفي العام ١٩٠٣، صدر كتابها الأول، يضم مقطوعات شعرية. وبعد سنتين، طبعت مجموعتها القصصية الأولى. ثم خطت خطوة أبعد، حين اسندت إليها رئاسة تحرير مجلة «**ماكلورز**» في **نيويورك** وانتقلت لتعيش حياة المدينة الصاخبة، والغنية بالروافد الفكرية والفنية. ولم تتوقف، خلال عملها الصحفي، عن كتابة القصة، ولكن حياتها الجديدة في المدينة، نقلتها من هدوء الريف، في منطقة «**الغمامة الحمراء**» حيث نشأت، إلى قلب الصخب والازدحام... ويقال إن **ويللا** استأجرت الشقة الواقعة فوق شقتها، وأبقتها فارغة، كي لا يكون فوقها جيران مزعجون.

* * *

إلا أنها حملت، من الريف الهادئ، كل الغنى والتجارب الصادقة والوجوه التي انطبعت فوق صفحة الوعي، وبقيت أغنى الوجوه، واستمرت تنضج من خلال قصصها ورواياتها.

كانت رحبة وغنية تلك الأرض التي اختارتها لتغرس فيها كلماتها وبذور تجاربها الأولى، كما غرست التجارب التي تكونت لديها بعدما احتكت بألوان منوعة من البشر، عبر اشتغالها في الصحافة والتعليم.

إنما التجربة الأولى عرفتها الكاتبة الرائدة، من حياة الرواد، الذين هاجروا من أوروبا، مثل أهلها وأجدادها. بينهم من جاء من **السويد** أو **بوهيميا**، و**ألمانيا** وسواها... وجاؤوا، يستصلحون الأراضي البائرة عند حدود الغرب الأميركي، ويحولون قحطها إلى خصوبة.

عن أولئك الرواد وضعت كتابها الأول الهام «**أيها الرواد!**» وظلت تعود إليهم، مثلما تعود إلى الأرض الأم، التي احتضنت طفولتها ومراهقتها.

لكن العودة الواقعية لم تتحقق، إذ كانت تحس أنه من الأفضل أن تبقى بينها وبين عالمها الأول تلك المسافة من البعد والصفاء الذهني. وهذه نزعة يعرفها كل كاتب هجر بيته الأول، أرضه الأولى، وبات يرى العودة مستحيلة، ففضل عليها البقاء في عالم من اختياره، بناه من أفكاره وخياله وأوهامه.

* * *

«**الفن لا يستورد، ولا يلصق بالحياة. فالفن ينبع من عناصر العيش**». ومن أجواء الرواد، من حياتهم ومزارعهم، من أطفالهم ونسائهم، وصراعهم في سبيل إرساء القواعد لحياة كريمة، استلهمت

ويللا مادة لكثير من قصصها. بل إنها كانت البطلة، في كل واحدة من تلك القصص.

ولا تلجأ الكاتبة، في قصصها، إلى التحليل النفسي، كما لا تحاول الولوج إلى العوالم الذاتية لشخصياتها، بل تكتفي بأن تغرف حفنات من الحياة، تقدمها الى القارئ بكل حرارتها وتفاعلاتها. وبقدر ما كانت تحترم الجماعة التي بنت على الحدود، وحولت الأرض المجدبة إلى حقول خير وبركة، فإنها أخذت موقفاً آخر من الجيل الثاني، أبناء الرواد، الذين كانوا يخجلون من فقر أهلهم، من لهجتهم الخشنة ولغتهم المكسرة، إذ كانت تتجاوز المظاهر لتعبر إلى الجوهر... وظل موقفها متحيزاً للعالم القديم، فقد كرهت كل تحول أو تغيير، وهي القائلة: «**أحب الخيول، أكثر مما أحب السيارات الفخمة**». أي أن **ويللا** أحبت الطبيعة، والحياة في الطبيعة، واعتبرت ان الفن:

«**هو الحياة. و زوجة المزارع التي تربي أولادها، تطبخ غذاءهم، تخيط ثيابهم، ترعى شؤون المنزل، ثم تقود الشاحنة، وتهتم بمزرعة الدجاج، وتعد المؤونة للشتاء، وتتمتع بذلك كله... إن هذه المرأة تقدم للفن أكثر مما تعطيه الأندية الفنية**».

هذا رأيها. وتستطرد في إحدى مقالاتها: «**معظم الفنانات العظيمات اللواتي عرفتهن: من راقصات باليه، وروائيات، وشاعرات ونحاتات وراسمات... جميعهن من هذا النوع من النساء**».

* * *

لماذا خرجت **ويللا** من الصحافة؟ الجواب ليس سهلاً من هذا البعد

الزمني، لكننا، نستطيع أن نستخلصه من بعض ما كتبت، واعترفت بأن الصحافة كانت بالنسبة إليها، جسراً عبرته إلى ما تريد حقاً أن تكتبه. واستقالت من الصحافة، بعد ممارسة سنوات، لأنها شعرت بأن بقاءها سوف يعيقها عن كتابة ما تريد. لكنها لم تبخس حق الصحافة عليها، بل اعترفت بأنها كانت وسيلتها إلى مقابلة الشخصيات الهامة والممتعة، كما ساعدت قلمها ليجد له الهوية والأسلوب، وربما وجدتهما معاً بعدما نشرت روايتها «**أيها الرواد**»، وكانت على عتبة الأربعين من عمرها، أي سن النضج والتألق.

* * *

وبدأت تتألق وتحتل مكانة أدبية رفيعة المستوى، مع كتابها «**واحد منا**» وهو رواية مستلة من صميم مشاعرها، وجراح عائلتها؛ إذ اعتمدت في تأليفها، رسائل كتبها ابن عمها الجندي الشاب الذي قتل في الحرب العالمية الأولى. على إثر وفاته، قامت بجمع رسائله، ومنها استلهمت مادة روايتها التي استحقت جائزة «**بوليتزر**» أهم جائزة أدبية في بلادها.

وكان لهذه الرواية نجاح خاص، في صفوف الجنود، إذ اعتبرها كل واحد منهم روايته وبات يبصر وجهه في وجه الجندي الراحل.

* * *

لم تحاول **ويللا** الكتابة عن عالمها الخارجي، قبل أن تنفض ما علق في نفسها من آثار الطفولة والمراهقة. والذي يتابع تطورها، يكتشف أنها كانت مخلصة، صادقة مع نفسها، تعبر عن التجربة التي عاشتها بحرارة وحيوية. وهذا ما يجعل التجربة تنتقل من الخاص إلى العام.

أيام طفولتها، تأثرت **ويللا** بجدتها لأمها، وكانت تنفق في دارها أياماً، بل أشهراً، ونمت صداقة طيبة بين الجدة والحفيدة عبرت عنها في إحدى قصصها «**جدتي، لا تظني أني نسيت**».

من حضن الأرض والجدة، انطلقت شهرتها بسرعة البرق. حتى أن أباها، وكان شريكاً في تأسيس صحيفة، لم يتمكن من إدراك المدى الذي بلغته ابنته. وظل يناديها «**ابنتي**» وحسب. ولفته ذات يوم، الكاتب **سنكلير لويس** إلى أهميتها بقوله: «**أميركا كلها باتت تعرف نبراسكا من خلال كتب ويللا**».

هذا الأب الذي أولعت به، توفي. وحزنت عليه الكاتبة حزناً عظيماً، بل انها انتقلت إلى الغضب، واعتبرت الوقت عدو الإنسان. وفي اثر هذه التجربة كتبت تقول: «**الموت يمثل ديكتاتورية الزمن وتعسفه**».

وقد انتقل حبها من أبيها إلى إخوتها، واولادهم، الذين أحبتهم جميعاً وخلفت لهم، من بعدها، كل ما كانت تملك.

* * *

في حياة الكاتبة، محطات نتوقف عند واحدة هامة: **الطفولة**. في تلك المرحلة أصيبت بشلل سبب لها ضعفاً في إحدى ساقيها، لكنها تغلبت على ضعفها بالرياضة، وجابهت المرض بالتحدي، فجعلت المشي هوايتها المفضلة، وصارت تقطع مسافات طويلة. وكان ذلك سبب شفائها التام، ولم يَبْقَ أي أثر للداء في مشيتها.

وقوة شخصيتها نابعة من طفولة سعيدة، عاشتها محاطة بعائلة محبة، وصداقات طيبة. وظل بعض رفاق الطفولة، أصدقاءها، مدى

الحياة. ورواية «**انطونيا**» من وحي إحدى الصديقات، آني **البوهيمية**. ذلك أن الفتاة كانت تمثل الغريب، غير المألوف، الذي استرعى اهتمام **ويللا** في كل ما كتبت. وظلت السنوات الأولى من حياتها مصدراً هاماً وهي التي كتبت: «**السنوات الأولى من عمر الإنسان تترك، في نفسه، أعمق انطباع**».

هذا صحيح. وقد عبرت عنه في إحدى مقالاتها: «**كلما عبرت نهر ميسوري، عائدة إلى نبراسكا، تمزقني رائحة الأرض، فلا أعود اعرف أيها الأنا الحقيقية، وأيها المزيفة... فإني أحببت البلد الذي فيه نشأت، حيث الناس لا يزالون ينادونني: «ويلي كاثر»**.

* * *

وأحبت بلاداً أخرى، كما اهتمت بآداب غير أدب بلادها، وأولت الأدب الفرنسي اهتماماً خاصاً. ومع أنها جعلت **نيويورك** مقر إقامتها إلا أنها انطلقت منها في عدة رحلات إلى **أوروبا**. وكانت كل خطوة توسع أفقها الفكري، إنما جذورها الأصيلة بقيت مغروسة في تربتها الأولى. في الأرض التي غذتها بالصدق في التعبير، والإخلاص في طرح القضايا. ولم تنحصر مواضيعها في حياة المزارعين بل تناولت، فيما بعد، علاقة الرجل والمرأة وصراعها هي لكسب الاستقلال الشخصي، والخروج من الحياة المسحوقة ضمن إطار قرية صغيرة... كما عالجت المؤثرات التي تخلفها الحرب في نفوس الناس. وبينها الخيبة، وانهيار القيم التقليدية...

وقد ساعدت الحرب العالمية الأولى، في التوجه الجديد للكاتبة، والذي حملها إلى عزلة اجتماعية، انعكست في آثار المرحلة الأخيرة

من حياتها، وبحثها عن مواضيع لا تمت بأية صلة إلى الحياة العصرية التي خبرتها عمقاً واتساعاً.

وأتقنت **ويللا** فنها الروائي إلى درجة جعلت الكاتب **سنكلير لويس** يقول، بعدما تبلغ نبأ فوزه بجائزة نوبل لعام ١٩٣٠: «**كانت ويللا كاثر تستحق هذه الجائزة**»... ولن نناقش هنا الأسباب التي حالت دون تحقيق ذلك.

ولم تعش **ويللا** في مجمل سنوات حياتها، في برج عاجي، بل ظلت بين الناس. ونقلت تجربتها إلى الطلاب عبر محاضرات كانت تلقيها من على المنابر الجامعية. وحفظت جيداً جواب **ستيفن كرين** لها، عن مفهومه للقصة، حين قال: «**أولاً، يجب أن تكون عندك اللهفة والشوق يغلي فوق أناملك. وبلا هذا لا يعني الأدب شيئاً**».

وبناء على نصيحة الأستاذ، طلبت من التلامذة، ألا يسجلوا ملاحظات، في أثناء الاصغاء إليها، لأنها كانت ترى أَنَّ: «**الكتابة حالة عشق، وعلى الكاتب أن يحب موضوعه إلى درجة نسيان ذاته، إبان اندماجه في الكتابة، وتصبح الفكرة قوته، كما تصبح الذكاء الكابح الذي يحول بينه وبين التهور... فالكتابة عمل صعب وعلى من يمارسها أن يحبها أولاً وآخراً**».

ومن أقوالها التي تختصر تجربتها في الكتابة: «**النهاية ليست شيئاً. المهم هو الطريق... ولا تستطيع أن تقتل فناناً، كما أنك لا تقوى على صنعه**».

* * *

ولها في وصف عملية الكتابة رأي طريف. فقد سئلت مرة:

«كيف تولد القصة؟»، وكان جوابها: «**تشعر بثقل في مقدم الرأس، ثم يتفشى في الدماغ، ويصيبك الذعر إذا حصل لك ما يعيق خروج القصة إلى نور الحياة**»...

* * *

وماذا عن حياتها العاطفية؟

ليس هناك الكثير. ففي مطلع شبابها، تقدم طبيب يطلب يدها للزواج، فرفضت حين شعرت بأنها لا تحبه بقدر ما تحب فنها. وهي القائلة: «**الفن لا يطيق شريكاً**».

وقد وهبت حياتها لفنها، بتكريس ومثابرة. وإذا كانت رواياتها بعيدة عن مواضيع الحب والعاطفة، فلأن اهتمامها كان في اتجاهات بعيدة عن المشاعر الشخصية. وإذا أحبت، فإنها لم تتوقف في أدبها عند ذلك الحب، إذ كانت تشغلها قضايا إنسانية أهم.

* * *

وأقدم هنا بعض محطات تكريمها:

* **١٩٢٢ جائزة «بوليتزر» لروايتها «واحد منا».**
* **١٩٣١ جائزة «فمينا» لروايتها «خيالات فوق الصخور».**
* **كانت أول امرأة تنال شهادة فخرية من جامعة برنستون.**
* **نالت شهادات فخرية من جامعات: نبراسكا - كاليفورنيا - كولومبيا - يال - سميث - كريتون وميتشيغن.**
* **١٩٣٨ انتخبت عضواً في الاكاديمية الاميركية للفنون والأداب.**

* **منحت، عام ١٩٤٤، ميدالية ذهبية من المؤسسة الوطنية للفنون والآداب.**
* **جائزة مارك توين الأدبية.**

والمرأة التي كتبت عن حياة الرواد، كانت هي نفسها رائدة في أسلوب عيشها، كما في فنها. وينطبق عليها قول **كارليل**: «**في حياتها كانت حالمة. أحلامها مجنونة، عظيمة، وجامحة. ربما تنام الآن بهدوء، أو ربما كانت صاحية**»...

ونامت **ويللا كاثر** نومها الأخير بتاريخ ٢٤ نيسان، عام ١٩٤٧، بعدما عاشت حربين وناضلت مع الرواد الأول في وطنها، وكتبت عن تجاربها سبع عشرة رواية ومجموعة قصصية، نال قسم كبير منها جوائز قيّمة، كما تبقى هذه الكاتبة مدرسة متميزة لمن يشاء أن يبحث عن الأصول.

- سيرة حياة، ومجموعة مقالات من أرشيف المركز الثقافي الاميركي.
- نساء من التاريخ - منشورات الجمهورية العربية السورية.

جرترود شتاين



«آه! يا لهذا الجيل الضائع!».



يعود اهتمامي بهذه السيدة إلى أيام الدراسة الجامعية، حين طالعنا نماذج من أدبها الطريف، الغريب، والذي يبقى عالقاً في الذاكرة بعدما تنتهي مرحلة الدراسة، وتطوى الكتب، وتقطع المساحات الزمنية.

وأدبها، جديد، مميز، ولا يشبه شيئاً مما جاء قبله، وربما بعده.

إسمها اشتهر بين الحربين العالميتين. وشخصيتها الغامضة شغلت النقاد، وكتّاب السيرة. كما أن أدبها غرس الحيرة في نفوس دارسيها، فلم يدروا أين يصنفونها، وفي أية خانة يضعون إسمها: فهل هي عبقرية؟. (وفي أعمالها، بعض أعمالها على الأقل، نفح من التميز؟..) أم أنها غريبة الأطوار، وأثر تلك الغرابة يظهر في أدبها؟..

في الواقع أن المرأة كانت ذات مواهب فذة، وشخصية خارقة، تركت أثرها في عصرها، بل وفي آثار عظام ممن عرفوها، كتّاباً وفنانين. كان يكفي أن تقول **جرترود شتاين** رأيها في عمل أدبي أو فني، حتى ترفعه إلى قمة الرواج والنجاح، أو تخفضه إلى أسفل درجات الاهمال.

والأهم من ذلك، العلاقات الفكرية الخصبة، التي نشأت بينها وبين شباب كانوا يبحثون عن مستقبلهم في عالمي الفن والأدب. وكانوا من رواد صالونها يسعون إليها باحثين عن الرأي السديد، والكلمة المشجعة. وفي طليعة هؤلاء، إثنان أصبحا من أعلام العصر: **بابلو بيكاسو وأرنست همنغواي**.

لا بد، هنا، من عودة إلى البدء، كي نتعرف بعمق، إلى السيدة التي جعلت صالونها الأدبي والفني، نقطة لقاء بين حضارات أوروبا وأميركا.. بل وبين الشرق والغرب.

ونتعرف إلى السيدة التي كانت ترسل كلماتها الساحرة، فتسيطر على مستمعيها. بل كان يكفيها أن تطلق اسماً أوعبارة، فيصبح ما صدر عنها عنواناً لسلوك جيل بكامله. «**الجيل الضائع**» إحدى تسمياتها، والصفة التي أطلقتها على الشباب المبدع والتائه، بين حربين كونيتين. ولم تلبث التسمية أن ثبتت، وأصبحت عنوان أدب الجيل، وفنونه قاطبة.

* * *

ولدت **جرترود شتاين** في مدينة **الليغيني** الأميركية، بولاية بنسلفانيا في ٣ شباط عام ١٨٧٤، وقد غادرتها إلى **فيينا**، **النمسا**، ولها من العمر ستة أشهر، وذلك برفقة الأسرة المؤلفة من الأب الباحث عن مزيد من النجاح في أعماله، وطموح فكري، كي يُعَرِّض أولاده، وفي مرحلة باكرة من حياتهم، لتنوع الحضارات.. وكانت ترافقه زوجته، المرأة اللطيفة، وثلاثة أبناء وابنتان.

وأقامت الأسرة في **فيينا** ثلاث سنوات، ثم انتقلت إلى **باريس**، وأمضت فترة قصيرة، قبل العودة إلى الوطن الأم، وإلى ولاية **كاليفورنيا**، حيث عاشت **جرترود** حتى بلغت السن السابعة عشرة.. أي فترة تكوين الشخصية، وتركيز الأسس التربوية والعلمية.

وكانت السنوات الأخيرة من هذه المرحلة، موحشة، إذ توفيت أمها، ثم أبوها. فغادرت الغرب برفقة أختها، وأحد الأخوة الثلاثة،

متجهين إلى الشاطئ الشرقي من القارة الأميركية واستقروا في مدينة **بالتيمور**، في كنف عائلة أمهم.

أمضت **جرترود** فصل الشتاء في التأمل، والتخطيط للغد، قبل أن تلتحق بكلية **رادكليف**، في جامعة **هارفارد**، حيث درست علم النفس والفلسفة. ولحسن حظها أن أستاذها في الفلسفة كان المفكر الشهير **وليم جيمس**. وقد خصها برعاية شخصية وكان يرى فيها نموذجاً للإنسانة المتفوقة والتي لا تقف في طموحها، عند حد.

وفي هذه المرحلة بالذات بدأت **جرترود** تمارس أولى تجاربها الكتابية، فاشتركت مع زميل لها من طلاب الجامعة، بمحاولة في الكتابة الآلية، تحت إشراف **مونستربرغ**. هذه التجربة، سوف تطبع حياتها بطابعها، كما ستظهر آثارها في أعمالها اللاحقة، ثم تبقى رفيقتها في خطواتها التالية.

لكنها حملت الأثر الأهم، في فلسفتها، ونظرتها إلى الحياة والوجود، من **وليم جيمس**، فيلسوف الواقعية، الذي أحبته وقدرته كأستاذ وفيلسوف. وحفظت عنه الوصية التي لازمتها في كل خطواتها المقبلة: «**ابقي عقلك منفتحاً**». وكانت لها دالة على هذا الأستاذ. وهو، يقبلِ منها كل تصرف وسلوك، ويعذرها، حين تدبج رسالة اعتذار، بدلاً من أن تقدم أوراق الامتحان. ذلك أنه استطاع بفضل عينه الحساسة، وذكائه المتوقد، أن يخترق القشرة السطحية، وينفذ إلى أعماق الإنسانة ويضع إصبعه على موهبتها غير العادية.

وهو الذي نصحها بأن تدرس الطب، كمدخل لدراسة علم النفس. لكنها، بعدما قضت عدة سنوات في جامعة **جون هوبكنز**

وكادت أن تنال شهادتها في الطب، تخلت عن الدراسة، قبل أن تحصل على شهادة تخولها ممارسة المهنة، وذلك حين شعرت بأن الطب ليس العمل الذي تسعى إليه، ودراسته بدأت تضجرها.

وفي الحقيقة، انها عرفت، باكراً، وقبل فوات الأوان، أن هناك عملاً واحداً يمكنها القيام به، وهناك مهنة واحدة تجذبها إلى دائرتها: **إنها مهنة الكتابة**. وأصرت على التعبير بلغتها الانكليزية، برغم امتلاكها عدة لغات.

غادرت **جرترود** الجامعة، ثم التحقت بأخيها **ليو شتاين** في مدينة **فلورنس** الايطالية. ومنها انتقلت إلى **لندن**، حيث بدأت إتصالاتها الأولى ببعض المفكرين الشباب، غير التقليديين، أمثال **برتراند راسل**. كما استفادت من متاحف المدينة، ومكتباتها، فانكبت على دراسة كل ما طالعها من مواضيع فكرية، فنية وأدبية. وركزت إهتمامها، بصورة خاصة، على كتّاب العصر **الأليزابيثي** أمثال **وليم شكسبير**.

لكنها لم تتآلف **ولندن**، بسبب «**مناخها الضبابي، وشوارعها الكئيبة**»، فغادرتها عائدة إلى أميركا. ولم يلبث أخوها أن تعب من أجواء **لندن**، فانتقل إلى **باريس**، وأرسل يدعوها كي تلتحق به، فرحبت بالدعوة، وسارعت إلى **باريس** حيث انغمست فوراً في الأجواء الفنية، والأدبية، وبدأت بالكتابة ووضعت رواية قصيرة لم تنشرها، إنما بقيت الباكورة التي افتتحت بها حياتها الأدبية، ونسيتها تماماً فيما بعد، حين غرقت في تأليف رواية جديدة عنوانها «**ثلاث حيوات**» وهي قصة ثلاث نساء عاملات. وكان نشرها عام ١٩٠٧ حدثاً أدبياً. واعتبرها النقاد «**تحفة صغيرة**».

وكانت، خلال تلك السنوات، مقيمة مع أخيها وزوجته، وقد غادرت منزلهما نهائياً عام ١٩١٢ إلى شقتها الخاصة في «**٢٧ شارع دوفلوريس**» حيث شاركتها السكن والعمل، سكرتيرتها ورفيقتها الدائمة **أليس ب. توكلاس**.

لا بد من أن نذكر، هنا، عمل أخيها **ليو شتاين**. فقد كان ناقداً فنياً مشهوراً، وله ولع خاص بجمع اللوحات المغمورة لفنانين مجددين. وأنشأ مع أخته صالة فنية، كانت صلة الوصل، بينهما وبين كبار فناني العصر. في تلك الفترة، كان فنان مثل **بيكاسو** لا يزال شاباً، يمارس تجاربه الغريبة، ومثله **هنري ماتيس وجورج براك**.

وأصبح الثلاثة أقرب الأصدقاء، بالنسبة الى الكاتبة. كما حظيت أعمالهم بتقديرها وإعجابها، خصوصاً التجربة التكعيبية، التي مارستها هي أيضاً، في الرسم وفي الكتابة، إذ اعتمدت إضاءة اللحظة، والتقطيع، والتبسيط، ثم تكرار المفردات.

لكن تجربتها تلك، على أهميتها، ظلت بعيدة عن إدراك القارئ العادي. وحتى النقاد، الذين يتناولون أعمالها بالثناء والاعجاب، في المجالس والصالونات، لم يسجلوا آراءهم فيها كتابة، عدا القلة المغامرة، والتي لا تخشى لوم التقليديين. إلا أن هذا التقصير، لم يقلل من قيمتها الفكرية، ولم يعرقل النجاح الذي حققه صالونها الأدبي، وقد أصبح نقطة التقاء كل المواهب الجديدة، وكان في طليعة رواده، اضافةً إلى الفنانين المجددين في القارة الأوروبية، كتّاب أميركيون يبحثون عن أنفسهم عبر الكلمة الحديثة. ومن هؤلاء **أرنست همنغواي، يوجين أونيل وشروود أندرسون**.

وبرغم مكانتها الأدبية، فإن الأثر الأهم، الذي تركته **جرترود** هو تفاعل تلك اللقاءات، في جو مشبع بالحرية والنضارة الفكرية، والشغف بالمعرفة، والمضي في البحث عنها حتى أقصى الحدود، ثم الانفتاح على كل جديد، والتخلي عن التعصب والأفكار المسبقة.

أما قصتها مع **همنغواي** فقد سجلتها ببساطة في مذكراتها: **تعرفت إليه، حين قصدها، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، حاملاً طموحه، وقلمه، وعملاً يسمح له بالإقامة في باريس، إذ كان مراسلاً لإحدى الصحف الكندية.**

وفي ليلة، دعاها، مع سكرتيرتها إلى زيارة بيته... وخلال السهرة، عرض على **جرترود** أهم أعماله، الروائية والشعرية، فأبدت إعجابها ببواكير شعره، لكنها أبدت تحفظاً حيال الرواية، وانتقدت إفاضتها في الوصف، وطلبت منه أن يعيد كتابتها، ويضاعف مقدرته على التركيز. وبالطبع أخذ بنصيحتها. كذلك نصحته، إذا بقي مصراً على الكتابة، بأن يرحل، مع زوجته، في بلاد الله الواسعة، كي يعيش تجارب شخصية، ويشبع نهمه إلى المغامرة... وسافر.

وفي يوم، وبعد انقضاء بضعة أشهر على غيابه، عاد وحده، وقام بزيارتها الساعة العاشرة صباحاً، ثم بقي في مكانه، عندما حان وقت الغداء، فتغدى معها، ولم يغادر ولم يفصح عما به. وبعد العشاء، كان قلقها عليه قد بلغ ذروته، خصوصاً وأن هذا التصرف ليس من طبعه، فسألته عما به، وانفجر الشاب صارخاً:

- زوجتي حامل. وأنا لست مستعداً للأبوة.

فنصحته بأن يعود إلى بلاده ويسعى إلى عمل يسمح له بالبقاء في

خط اتجاهه الفكري المفضل، أي كتابة الرواية. وهذا ما فعله. وبعد مرور بضعة أشهر، عاد يزورها، وكان قد أصبح أباً لطفل جميل، وطلب من **جرترود** أن تكون عرابة الولد.

وظلت تلك الصداقة الطيبة بين الكاتبين مدّة طويلة **وأرنست** سعى لدى أحد الناشرين لطبع العمل الضخم الذي كتبته المؤلفة ولم تنشره إلا بعدما تأكدت من اختماره، أي بعد عشرين سنة. وعنوان هذا الأثر «**نشوء الأميركيين**». وقد طبع **همنغواي** بنفسه قسماً كبيراً من الكتاب، على الآلة الكاتبة، كي لا يؤخر صدوره. وكانت **جرترود** والكاتب **شيروود أندرسون** يعتبران **همنغواي** تلميذهما النجيب، إذ لديه طاقة هائلة على استيعاب المحاضرة، ثم الاحتفاظ بالضروري منها.

كانت باريس، في عصر **صالون شتاين**، تعيش مرحلة الخصب الفني. إنما شبابها لم يكونوا أقل ضياعاً من الشباب الأميركي، القادم من خلف المحيط. وعين الكاتبة، ساهرة. ولا تغفل عن ملاحظة آثار الحرب، في النفوس الحساسة، الطرية. وهذا ما دفعها إلى إطلاق تسميتها المشهورة على مبدعي تلك الحقبة، وأصبحوا يعرفون، من خلال آثارهم، **بالجيل الضائع**. ومن قلب الضياع والقلق، تفجرت أعمال عظيمة. والكاتبة تحيا في نبض الأحداث، ترصدها، تتفاعل معها وتبقى واعية تماماً بأنها تجتاز مرحلة تاريخية فريدة. وبالطبع، لم تفوت تدوين انطباعاتها في أعمالها الأدبية اللاحقة.

لم تكن **جرترود شتاين** المرأة الجميلة. بل عادية الشكل والملامح. لكن طغيان شخصيتها، وقوتها، النابعة من بئر العبقرية العميق، كانت

من بين العناصر التي جذبت إليها الشعراء والفنانين. وقد تبارى في رسم شخصيتها أكثر من فنان. وبقيت أشهر اللوحات تلك التي رسمها **بيكاسو**. وقيل له، حين قدمها في معرض **باريس** الخريفي: «**أن اللوحة لا تشبه صاحبتها**»، فكان رده في غاية الطرافة، إذ قال: «**لا بأس... سوف تشبهها**»...

قامت الكاتبة بعدة زيارات إلى بلدان أوروبا، كي تتعرف إلى شعوبها وحضاراتها عن كثب. وأكثر ما كان يجذبها مناخ **إسبانيا**، وجوها الدافئ الحميم. كما زارت بعض مناطق المغرب العربي. وآثار زياراتها تظهر في أعمالها. كما أن الحركة التي أنشأتها في **باريس** تزامنت مع حركة **بلومسبيري اللندنية**، والتي ضمت الروائية **فرجينيا وولف** وشقيقتها الرسامة **فانيسا بيل**.

وكانت من المعجبات بأدب **جرترود** الكاتبة الشهيرة **أديث سيتويل**. وهي وراء دعوتها لتقوم بزيارة إلى **لندن**، تلقي خلالها سلسلة محاضرات في جامعتي **كامبردج وأوكسفورد**. وصدف ذلك في ربيع عام ١٩٢٦ . وتلك المحاضرات جمعت فيما بعد، في كتاب. وقد دعتها **سيتويل** إلى صالونها وجمعتها بنخبة المفكرين البريطانيين في حينه، وكانت **جرترود** تعرف بعضهم من خلال صالونها الباريسي، الذي وصفته في مذكراتها، بأنه مفتوح دائماً للأصدقاء وللغرباء. كان يكفي الكاتب الناشئ أو الفنان، أن يحمل بطاقة تعرّف به، من أحد أصدقاء الكاتبة، حتى يصبح عضواً دائماً ويشترك في المناقشات أو يقرأ، إذا شاء من شعره.

وتخبرنا مذكرات **توكلاس** – **أي جرترود** – بأنها كانت على

صلة وثيقة بآباء الحركة السوريالية، والدادائية، وكل النزعات الحديثة والغربية، التي نشأت إبان فترة الخصوبة تلك.

إنما اللقاءات الاحتماعية، لم تشغل الكاتبة عن التركيز الدقيق، وإتقان العمل، واختراق الحواجز لاكتناه الحقيقة التي شغلتها بوجهيها، الذاتي والخارجي. وقد مارست، بَعْضَ الوقت، طريقة إبتكار مفردات جديدة، لم يكن لها في الأصل، أي وجود. واستخدمت تلك المفردات في كتابة لغتها الجديدة، والتي ظلت، بطبيعة الحال، بعيدة عن إدراك الجمهور.

إلى ذلك، كانت **جرترود** على صلة برائدات النهضة النسائية في وطنها الأم، كما في العالم. وتابعت أخبارهن بكل تفاصيلها، عبر الصحف والمجلات التي ظلت تصلها من أرض نشأتها الأولى. وقد بلغ بها الاعجاب، برائدة الحركة النسائية في العالم قاطبة **سوزان أنطوني** ان كتبت مسرحية مستلهمة من حياة تلك السيدة، ونضالها، وقوة شخصيتها وعنادها. عنوان المسرحية «**أمنا جميعاً**» وقد وضع موسيقاها **فرجيل طومبسون**.

وتحولت **جرترود شتاين** إلى أسطورة لدى كل من اهتم بالأدب، خصوصاً بعدما صمدت في **باريس** إبان الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية. وشهاداتها على تلك الفترة مسجلة في كتاب «**بروزي وويلي**» ونشر عام ١٩٤٦ . أي قبل وفاتها بقليل. وهذا ليس أهم أعمالها. وحتى تلك التي بلغت فيها ذروة الإبداع، لم تصل إلى ما بلغته الكاتبة بفضل شخصيتها الفذة، وفضولها العلمي والفكري الذي أدخلها في شرايين العصر، لتحس من الداخل، نبض التفاعل الحي.

وجعل الرأي العام ينشغل بها، حتى يقال: **إن ما كتب عن هذه الكاتبة هو نسبة ضئيلة مما كان يحكى عنها في المجالس**. وذلك قبل عهد المسجلات «**الترانزيستور**» لسوء الحظ.

أما اللغة التي حاولت أن تبتكرها لتستحدمها في تجاربها الأدبية، فقد تركت أثرها على جيل من الكتّاب. والبعض يرى أن تأثيرها، الذي سرى مفعوله في جملة أعمال أدبية ذات شأن، كان أقوى من تأثير **جيمس جويس** وربما **فرجينيا وولف**.

أما مذكراتها، والتي نسبتها إلى سكرتيرتها **أليس ب. توكلاس**، فهي سجلّ حافل، وتأريخ لحقبة زمنية فذة وشهادة حية على بدء تكوين جيل من المبدعين العالميين. بل إنها تأكيد على تأثير مناخ الحرية، في نفوس الكتّاب والفنانين، وبالطبع، في أعمالهم. وكأنما هذه الكاتبة، اختارت الكرة الأرضية ساحة لسباق بدأته في وطنها، ثم تابعته في قلب أوروبا النابض بالأحداث. بالإبداع، والجمال... بعض مقومات **باريس** في مطلع هذا القرن.

ويبقى كتابها «**البراعم الطريئة**» شهادة حق على طاقة إبداعية هامة، خلفت آثارها في نفوس من عاصروها.

أما القارئ العادي، فظل بعيداً عن إدراك ألغازها وظلت في باله مؤلفة العبارات السهلة، والتي تتكرر فيها الكلمة الواحدة عدة مرات.

أما فترة التجلي، وتتويج نشاطها، فكانت العام ١٩٣٤ - ١٩٣٥ حين أخرج **طومبسون** مسرحيتها «**أربعة قديسين في ثلاثة فصول**» ونظم لها جولة محاضرات في أهم الجامعات الأميركية، فأعطاها بذلك فرصة لقاء المعجبين بها، في وطنها الأم.

والكاتبة التي شهدت حربين، وعايشت الاحتلال الألماني، في **باريس**، وشهدت عليه، لم تعط فرصة الكتابة عن السلام، إذ وافتها المنية في ٢٧ تموز من العام ١٩٤٦ . وقد أغمضت عينيها، في المدينة التي أحبتها واختارتها وطناً.

وخلفت، إلى جانب آثارها الفنية والأدبية، مجموعة لوحات لكبار الفنانين، بقيت في عهدة سكرتيرتها **أليس** إلى حين وفاتها في العام ١٩٦٩، وقد بيعت تلك المجموعة بستة ملايين دولار أميركي. وهذا رقم ضخم، لكن الربح لم يكن هدف الكاتبة، التي أحبت الفن وعاشت من أجله، وأحاطت نفسها بحزامه الجمالي، في كل لحظة من لحظات وجودها.

- مذكرات أليس ب. توكلاس
- الموسوعة البريطانية.
- جرترود شتاين والعصر - أبليغرا ستيوارت.



لوسي مونتغومري



«لا أذكر يوماً من أيام حياتي حين لم أكن فيه أكتب» .



بحثت عن تفاصيل سيرتها قبل عشرين سنة، أي منذ وصلني كتاب عنوانه «**آن أوف غرين غابلز**» ومعناه بالعربية «**آن القناطر الخضراء**».

كان الكتاب هدية من صديقة في جزيرة «**الأمير ادوار**» - **كندا**، قالت في كلمة الاهداء إنها تجد ملامح شبه بين المؤلفة وبيني.

ابتسمت للاطراء، وبدأت اقرأ الرواية، وذهلت، وفرحت، وأعادتني كتابتها إلى أيام الدهشة الطفولية...

وكانت الخطوة الأولى التي قمت بها، حين زرت جزيرة المؤلفة، أن أبحث عن كتاب يخبر عن سيرتها، لأعرف كيف استطاعت **مونتغومري**، أن تخترق نطاق عزلتها، وتهدي عالم الأدب، والطفولة، «أروع **شخصية**» منذ ولادة الآية الأدبية: «**أليس في بلاد العجائب**»...

وهذا الكلام ليس تقويماً شخصياً إنما هو جزء مما قاله أحد كبار الأدباء في روايتها التي كتبت مع مطلع هذا القرن.

* * *

خلال زيارتي الأولى إلى الجزيرة، كان الوقت شتاء وبيتها المتحف مغلقاً، بسبب العوائق الطبيعية، ولم أشبع نهم الفكر... وفي رحلتي التالية، عدت إلى البحث عن هوية الكاتبة وسيرتها، ففوجئت بأن

الجزيرة، ومن عليها من سياح وسكان، يحتفلون بها... أو بالأحرى **بمولودها البكر**، وذلك لمناسبة مرور عشرين سنة على تمثيل المسرحية الغنائية التي استوحاها من روايتها الفنان **دونالد هارون**. كما وجدت عدة كتب صادرة عنها، من تأليف كبار الباحثين والنقاد.

وهكذا عدت إلى لبنان، وفي نفسي ذكريات مفرحة، من أيام حلوة، نعمت خلالها بمناخين رائعين: طبيعة الجزيرة، والعروض الفنية فيها. ولمست، بالحس والواقع، كم يمكن أن يؤثر الأدب في نفوس الناس، خصوصاً إذا كان نابعاً من حياتهم، ومن أصالة فكرهم وتقاليدهم...

* * *

«**لوسي مود مونتغومري**» مولودة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني عام ١٨٧٤ في قرية «**نيو لندن**» على أحد الأطراف الشمالية من **جزيرة الأمير ادوار**. أبوها **هيوجو مونتغومري**، وأمها **كلارا وولبر ماكنيل**. وكانت طفلة سيئة الحظ إذ فقدت أمها ولها من العمر واحد وعشرون شهراً.. وكانت الأم صبية في الثالثة والعشرين:

«**أذكرها جيداً. وجهها الحزين، وأبي يرفعني فوق ساعديه، وعيناي تأبيان فراق وجهها الجميل..**» هذا ما كتبته **مود** فيما بعد.

وأبوها، حملها إلى أقرب بيت يمكن أن يؤمن لها تربية صحيحة وتوازناً إنسانياً واجتماعياً. فقد نقلها إلى دار جديها لأمها، وترك لهما أمر تربيتها.

وهكذا بدأت رحلة الطفلة في الحياة، يتيمة الأم، مع أب دائم

السفر والتنقل، تضطره إلى ذلك أعماله، وطموحه السياسي. وعاشت الصغيرة في كنف جديها، وتأثرت بهما، خصوصاً الجد الذي كان له أثر طيب في توجيهها الأدبي، مثلما كان، لتلك العمة التي تذكرها في كل مناسبة، واسمها **ماري لوسون**... كانت تخبرها بالتفصيل حكايات الجزيرة وأساطيرها، وتقص عليها حكايات تربطها بالتراث والشعب.

وكانت **مود** في طفولتها مرهفة الحس، دقيقة الملاحظة، عفوية الحركة، وفوارة انفعالات. وهذا الطبع المتميز هو ما جعلها تكتب بحماسة، وحرارة وسرعة خاطر ومرح، خصوصاً في كتابها الأول، «**آن القناطر الخضراء**» والذي رفعها إلى أوج الشهرة، وأطلق اسمها أبعد من حدود بلادها، حين ترجم إلى ما يزيد على العشرين لغة.

* * *

قضت **مود** طفولتها، وسنوات المراهقة، فوق أرض الجزيرة، أي عند حدود خليج «**سان لورانس**» الرائع، وعلى شواطئ «**كافنديش**» بمحاذاة الغابات الكثيفة، والسهول الخضراء، والأرض التي لا يتعبها تدفق الخيرات.

أحبت كل ما يقع عليه البصر، ووصفته، بل كتبت فيه الشعر. وكرست قصائدها الأولى لوصف البطولات والأساطير، مثلما كانت هناك قصائد في وصف الجمال الطبيعي فوق أرض الجزيرة، ولم تَنْسَ الأزهار البرية النادرة، والغابات التي تؤوي الأحلام والطيور الغريدة.

لم أقرأ لكاتب، أو كاتبة، حبًّا بمقدار الحب الذي سكبته يراعة **مود** في جزيرتها، وحين قدر لي أن أزور المكان، لم يسعني إلا أن أجري

مقارنة سريعة، بين الكلمة المكتوبة بالحبر، وتلك التي رسمتها يد الخالق فوق بقعة تكاد تكون أجمل بقاع الكون.. ووجدت أن كل ما كتبته تلك المؤلفة، كان صحيحاً، من دون معالاة... هذا مع أن المغالاة من بعض طبعها، وهي لا تبتلع ردود فعلها تجاه الناس أو الأشياء، بل تذريها للريح، أو للآذان الصاغية، بحماسة وعفوية تعدي من حولها، مثلما تنقل عدوى الفرح والحماسة اطلالة بطلتها «**آن**» ان من بين الكلمات، أو فوق خشبة المسرح.

تلقت **مود** دراستها الابتدائية والثانوية في معاهد الجزيرة. وكانت تجد في مكتبة جدها الكثير من الكتب التي تشبع نهمها إلى المطالعة. وقد أحاطها أفراد العائلة جميعهم، بالمحبة والعناية. ولكن ذلك كله، لم يُنْسِها فقد أعز مخلوق لديها...لم ينسها وجه الأم الصبية الراحلة، وهو يتوارى عنها، خلف قناع الموت، تاركاً لها الحيرة والفجيعة.

ولشدة ما أثرت هذه الحادثة في نفسها، انطبعت في أدبها، حالما بدأت تكتب. **فآن** وهي بطلة ست من رواياتها، كانت فتاة يتيمة — كذلك كانت **أملي** وهي بطلة سلسلة أخرى من روايات يتمتع بقراءتها الأحداث والكبار، منذ مطلع هذا القرن... ومع أنها أحبت والدها بعمق، «**بل كان أحب الرجال إلى قلبي...**» إلا أنه لم يحاول أن يعوضها من فقد الام، بل خسرته هو أيضاً حين ابتعد عنها، وتركها في كنف الجدين، واقتصرت علاقتها به، على بعض زيارات يقوم بها، كلما سمحت بذلك ظروف عمله. ثم كان زواجه «**ماري آن ماكراي**» سبباً آخر، زاد الشقة بينهما.

وهذا ما جعل الفتاة الصغيرة تبحث أبداً، عن بديل عاطفي، كانت تجده أحياناً في الطبيعة، أو الحلم، أو... الكتابة...

أجل فقد بدأت تكتب منذ السن السابعة: «**وحين يسألونني متى بدأت أكتب أقول: ليتني أتذكر.. فأنا لا أذكر يوماً من أيام حياتي حين لم أكن فيه أكتب...**»

* * *

وفي أحد الأيام، أخرجت سرها إلى العلن، وقرأت على أبيها قصيدة من تأليفها. فرد عليها بسلبية جارحة: «**ولكن هذا ليس شعراً**» قالت مدافعة: «**بل هو شعر حر**» ورد الأب بشيء من السخرية واللامبالاة: «**إذاً، إنه حر أكثر من اللزوم!...**»

آلمتها عبارته، من دون أن تثنيها عن عزمها على متابعة الكتابة، وتدوين أفكارها في مفكرة، ظلت رفيقتها حتى يومها الأخير.. .. ولكي تبرهن لذلك الأب انها جديرة بثقته، وعندها شيء جوهري تود أن تقوله، تابعت مسيرتها الشاقة، صعوداً إلى القمة.

* * *

كانت **مود** في السادسة عشرة من عمرها، حين رافقت جدها **مونتغومري** - وكان عضواً في مجلس الشيوخ - رافقته إلى زيارة أبيها، المقيم مع عائلته الجديدة في مدينة «**برنس ألبرت**». وأنفقت هناك سنة كاملة، كان لها أثر كبير في تفتح مواهبها، وتعرفها إلى الحركة الفكرية والفنية، في محيط يختلف عن محيطها المنعزل. فهي الآن في المدينة، وفي امكانها الاتصال بالصحف، بل ومراسلتها، هذا إلى جانب متابعتها الدراسة العليا.

وظلّت تعيش هاجس الكتابة، مثل أي طامح إلى ولوج هذا الباب.

وأرسلت ذات يوم قصيدة إلى إحدى الصحف المحلية، وانتظرت أربعة أسابيع قبل أن تحدث المعجزة، وتنشر لها «**الدايلي باتريوت**» القصيدة التي تدور حول إحدى الأساطير في الجزيرة. وعاد أبوها، في ذلك المساء إلى البيت، وهو يلوح بالصحيفة «**وكانت تلك الفقاعات اللذيذة الأولى، فوق كأس النجاح...**»

وسجلت في مذكراتها: «**أشعر بأن طولي زاد ثلاث بوصات.. في ليلة واحدة كبرت سنوات. لا أجد كلمات تقوى على التعبير عن شعوري**».

تلك العفوية والحماسة التي تقفز بين كلمات الكاتبة، تشد القارئ إلى أدبها. وهي نفسها تتردّد في كل ما كتبت، من روايات، ورسائل وأشعار.

* * *

بعد انقضاء سنة على إقامتها مع أبيها، شعرت **مود** بالحنين إلى الجزيرة... فهناك موطنها الأصيل، حيث الطبيعة العذبة والحرية.

كذلك، لم تعد تستطيع احتمال العيش، مع المرأة التي احتلت مكان أمها، في حياة أبيها. كما أن زوجة الأب، ارتكبت بحقها خطأ فادحاً، حين حاولت أن تستغل وجودها في البيت، لتكلفها بخدمتها وخدمة أطفالها.

ومع أن الأب ألح عليها، كي تبقى مع العائلة، إلا أنها رفضت، وفضلت أن تعود إلى منزل جديها. وكانت الشهرة قد بدأت تلوح في أفق حياتها، ونالت جائزة على إحدى قصصها، واقتنعت بأن الكتابة هي قدرها. وعليها أن تستمر في السعي على دروبها.

برغم الأشغال المنزلية التي كانت تستغرق الجزء الأكبر من وقتها، ظلت تجد بعض الوقت للكتابة. كما امتهنت التدريس إلى حين، قبل أن تقتنع بأن تلك المهنة متعبة جداً، ولا تترك لها ذرة من النشاط، لكي تكتب.

أما علاقتها بأبيها، فقد اقتصرت على تبادل الرسائل، حتى تاريخ وفاته فجأة. وكان في أواخر العقد الخامس من عمره. ولم تبدل **مود** سلوكها تجاه عائلته، بل ان وفاته قطعت آخر صلة لها بزوجته، وأولادها الأربعة.

* * *

لم تطل إقامة **مود** في مهنة التعليم أكثر من سنة، عادت بعدها لتتسجل في جامعة «**دالهاوسي**» كي تدرس الأدب على أحد كبار الأساتذة. وتابعت الكتابة، ودائرة شهرتها تتسع يوماً بعد يوم. ثم بدأت تحس بلذة جديدة للكتابة، حين راحت تردها الحوالات المالية، بدل مقالاتها أو قصصها. وفي هذه الأثناء، حدث ما بدل مسيرة حياتها، إذ توفي حدها، وباتت الجدة التي ربتها، وكانت لها الأم والحضن الدافئ، باتت وحيدة، في منزل بعيد، وسط المزرعة. وشعرت مود بأن واجبها يملي عليها أن تعود لتقيم مع الجدة، وتسهر على راحتها. وهكذا أنفقت ثلاث عشرة سنة من أيام صباها، في رد الجميل للإنسانة التي أنشأتها. وحين توفيت الجدة، انتقلت **مود** إلى العمل في الصحافة، وهنا، عرفت طعم الواقع، بكل قوته، وقسوته، ولم تتوقف عن كتابة الشعر. في هذه المرحلة، وردتها رسالة من شاب خجول له محاولاته الشعرية، وقد أبدى إعجابه بقلمها، فردت على

رسالته، واستمر التراسل بينها وبين «**أفرام وير**» أربعين سنة. كذلك تبادلت الكاتبة الرسائل الأدبية مع «**جورج ماكميلان**» وصديقة الطفولة: «**بونزي ماكنيل**». وكان لتلك الرسائل الفضل الأول في إلقاء الضوء، على حياتها، خصوصاً بدئها، وحتى مرحلة النضج.

* * *

وكانت المؤلفة قد بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها، حين نشرت روايتها الأولى، وأساس شهرتها: «**آن...**» كتبت بصمت وسرية، وعرضت المخطوطة على أكثر من ناشر، وتلقت أكثر من رسالة اعتذار، أو رفض. وأخيراً وصلتها رسالة ناشر من **بوسطن** تحمل إليها الموافقة على النشر، مع تفاصيل الاتفاقية وشروطها. من تلك الشروط، أن تمضي الكاتبة في خطها الأدبي. ويكون لتلك الدار حق الأفضلية في نشر ما تكتب.

ووافقت، من دون أن تدرك أن الناشر وضع حول عنقها قيداً كان له أسوأ تأثير على نفسيتها، فيما بعد.

ظنت **مود** أن الرواية الأولى، وبطلتها فتاة لا تجاوز الثانية عشرة من عمرها، لا تهم سوى المراهقين، أي من هم في متل سنها... وفوجئت بالنجاح الذي حققته «**آن القناطر الخضراء**» حين خرجت إلى النور عام ١٩٠٩ .

كان نجاحاً على صعيد القراء والنقاد على السواء. وأصبح اسم **مود** معروفاً في القارة الأميركية، وباتت تردها الرسائل من المعجبين، بل ومن كبار الكتّاب أمثال «**مارك توين**»، الذي كان في الثالثة والسبعين من عمره حين بعث إليها رسالة يقول فيها: «**لقد أبدعت في رسم**

شخصية البطلة... ان «آن» أغلى وأحب طفلة في عالم القصة منذ صدور «آليس في بلاد العجائب»...

* * *

ولم يعد قلمها يتوقف عن الكتابة. فبلغ عدد مؤلفاتها المنشورة في حياتها أربعاً وعشرين ومعظمها روايات للأحداث. لكنها لم تحجب نكهتها اللذيذة، أو متعة قراءتها، عن البالغين.

ومثلما عرفت الكاتبة النجاح فقد ذاقت أيضاً طعم الخيبة والألم، خصوصاً في مجتمع ضيق كمجتمعها. وكانت خيبتها الكبرى في الناشر، الذي راح يجني الأرباح الطائلة من الترجمة، أو تحويل رواياتها إلى تمثيليات أو أفلام سينمائية، من دون أن يحسب لها حساباً، إذ لم يكن هذا البند وارداً في العقد الأساسي، والذي وقعته حين كانت مبتدئة. وكتبت عن ذلك كله إلى صديقها **ويير**. ثم كانت خسارتها العاطفية حين توفيت جدتها: «**إنها أشد ساعات الحزن في حياتي.... جدتي الغالية، والتي كانت لي الأم الوحيدة في هذا العالم... توفيت**».

وكان على **مود** أن تطوي صفحة عريضة من حياتها، بوفاة الجدة، ثم تنتقل لتقيم، إلى حين، مع أسرة خالتها. لكنها لم تلبث أن قبلت طلب **القسّ ايوان ماكدونالد**، والذي «**كانت عينه تراقبها منذ سنوات...**» فتزوجا في الرابع من شهر تموز عام ١٩١١ . وأنجبت منه ثلاثة أولاد: **تشستر**، و**هيو** (ولد ميتاً) و**ستيوارت**، وكان طبيباً وعاش حتى العام ١٩٧٤ .

وقبله، كانت قد حطبت لقريب لها يدعى «**أدوين سمبسون**»،

لكنها فسخت الخطبة إذ شعرت نحوه بكره بالغ... واعترفت لصديق المراسلة، **ماكميلان**، بأنها أحبت رجلاً واحداً قبل زواجها، وكان، كما تقول «**حب العمر**»، إلا أنها لم تحترم الرجل، ولم تكن معجبة بأية صفة من صفاته. وشاء قدره أن يتوفى قبل أن ترتكب خطأ الزواج به والا: «**لكنت تزوجته طبعاً، وذلك يعني الزواج الكارثة**».

بينما كان زواجها في سن النضج، قائماً على الحب المتبادل، والاحترام والتقدير والاعجاب. ومع أن مسؤوليتها تضاعفت، إلا أنها تابعت الكتابة بغزارة بعدما تعلمت كيف تنظم وقتها، فتقوم بعملين في وقت واحد، وتنام خمس ساعات في اليوم.

* * *

والكاتبة التي عرفت الكثير من سلبيات الحياة، رفضت أن ترسم في أدبها وكلماتها، سوى صورة الجمال والنقاء والخير والفرح. فقد كتبت عن الإنسان المنتصر بطاقاته الإنسانية والروحية.

وكانت تقول لمنتقدي خيالها الجامح: «**إن اليقظة، لديّ، مثل المنام، مساحات لا تحد، يمرح فيها الخيال. ويعود بالخصب والجنى**». وقد عرفت حدودها الأدبية، وعلمت باكراً بأن موهبتها الأولى، هي كتابة أدب للشباب، الأدب الذي يغذي الروح، ويوقد لهبة الخيال، ويزيد الحياة عذوبة وجمالاً.

وقد توجهت إلى البالعين في رواية واحدة: «**القصر الأزرق**». إلا أن الأدب الذي خلّد اسمها، وترجم إلى لغات عدة هو أدب الأحداث. **فآن واملي** بطلتان من أروع ما صورت أقلام الكتّاب. وكانت **مود** ولا تزال رائدة في قصص الأحداث، قدمت للقرّاء ثماراً

لم يعرفوا طعمها من قبل. كما حملت اسم الجزيرة إلى أبعد الأصقاع. وبذلك، برهنت كم أن للكلمة المكتوبة من أهمية، خصوصاً حين تكون خلاصة الحب، والأرض.

* * *

وسكان الجزيرة يحفظون لها الود والتقدير. بيتها أصبح محجة، وذلك بعدما حولته الدولة عام ١٩٤٨ إلى متحف يؤمه السياح من كل صوب. كذلك تحولت بعض البيوت المجاورة إلى متاحف، لأن **مود** زارتها، أو أقامت فيها بعض الوقت. حتى المراكز السياحية في منطقة **كافنديش** تحمل أسماء بطلاتها. وباتت **آن**، بطلتها الأولى، شعاراً من شعائر الجزيرة. ومسرحيتها تقدم على مسارح «**شارلوت تاون**» منذ عشرين سنة.

وبتاريخ ١٥ آذار من عام ١٩٧٥ أصدرت الحكومة الكندية طابعاً تذكارياً يحمل صورة «آن»، واسم الكاتبة... وذلك لمناسبة مرور مائة عام على ولادتها.

وفي حياتها لاقت الواناً عدة من التقدير، فقد منحت وسام الامبراطورية البريطانية من أرفع درجة. وعلقت على المناسبة بأسلوبها الفكه: «**أتساءل إذا كان المسكين** (وتقصد الملك) **قد سمع** «**بالمحبوبة**» **التي حازت على ثقته قبل أن يوقع على القرار...**»

* * *

لم تسمح للأفكار بأن تسجنها ولا خضعت مسبقاً، لأي قرار. كانت حرة، محبة للحق والجمال. تقبلت التكريم ببساطة وتواضع، من دون أن تنسى دورها الأول، أو تفوتها اللذعة الساخرة حين تدعو المناسبة.

والمؤلفة التي عاشت سبعاً وثلاثين سنة من عمرها فوق أرض الجزيرة، اضطرت، بعد الزواج، الى أن تقيم في المدن، تلبية لمسؤوليات أدبية، أو عائلية. لكن خوفها من العودة إلى الجزيرة كان خوف كل فنان، يرفض أن يرى تحول الزمن.

ولم تنقذها شهرتها من مشاكل عائلية، رزحت تحت وطأتها، حين مرض زوجها، وساءت أحواله النفسية. وانفصل ابنها الأكبر عن زوجته، وطلب الابن الثاني **ستيوارت**، الذي تعتمد عليه، إلى الخدمة العسكرية إبان الحرب. وفي العام ١٩٤٠ انهارت أعصابها، ولم يستطع الأطباء أن يخرجوها من جحيم الهواجس، التي راحت تنخر عظامها، وتغلفها بالسويداء، وتضعفها إلى أن وافاها الأجل في ٢٤ نيسان عام ١٩٤٢ وكانت في السابعة والستين من عمرها. ونقلت رفاتها إلى البقعة الأولى التي أنبتتها، زهرة مختلفة عن زهرات الجزيرة.

وحين يقوم السياح بزيارة بيتها - المتحف - يقرأون قرار الحكومة الكندية القاضي بتحويل المنطقة إلى معالم أثرية مخصصة على اسمها «**كمواطنة ذات اهمية قومية وتاريخية**».

ونقرأ في ذيل مفكرتها العتيقة:

«طريق الصعود ليس مستحيلاً. تسلقته بعد سنين من السعي والعناء. لم يكن ذلك سهلاً، وفي أحلك ساعات الصراع، كنت أجد متعة وحماسة، يعرفها فقط، الهادفون إلى بلوغ القمم...».

- السنوات قبل آن - فرانسيس بولجر
- دولاب الأشياء - سيرة حياة لـ. م. مونتغومري، تأليف مولي غيلين

هيلين كيللر



«إني أحمل نوراً عجائبياً في قلبي، فالإيمان ينير كل سبيل أسلكه».



إنها أفضل صورة، يمكن أن نقدمها، في هذا العام - ١٩٨١ - الذي خصصته الأمم المتحدة لنجدة المعاقين في العالم، وتأهيلهم، كي يعيشوا حياة كريمة، مثمرة، وطبيعية، ويتخطوا العوائق التي جعلتها المصادفات في سبلهم.

هيلين كيللر:

حكايتها واحدة من أساطير القرن العشرين، إذا كان يجوز لنا أن نطلق إسم أسطورة، على عجائب هذا العصر.

وهي حكاية طفلة، ما كادت تبلغ شهرها التاسع عشر، حتى أُقفلت من حولها الأبواب، وانقطعت وسائل اتصالها بالعالم المحيط بها. وكانت سنوات حياتها، مليئة بالصراع.. صراع الإرادة القوية، والتصميم الأكيد، للخروج من الظلمة، والتغلب على العاهة المثلثة: **الكفاف، البكم، والصمم.**

* * *

ولدت **هيلين** في ولاية «**الاباما**» الأميركية، بتاريخ ٢٧ حزيران ١٨٨٠، في عائلة مترفة، راقية. وكانت مثال الطفولة المعافاة، إلى أن أصيبت بالتهاب في الدماغ، خلفها فاقدة السمع والبصر معاً.. وبطبيعة الحال، فقدت نطقها نتيجة قيام حاجز كثيف، حجب عنها كل صوت.

أية طفولة تاعسة، كانت طفولتها! الجسم قوي معافى، الوجنتان موردتان، والإنسان، داخل كيانها، ملجوم، والطاقات مكبوتة طي جدران الصدر، ولا سبيل لها كي تتنفس أو تتفاعل مع العالم المحيط بها. وتتحول الطفلة نتيجة ذلك السجن، إلى ما يتسبه الحيوان البري، فهي شرسة، مؤذية، خائفة وتائهة، إلى أبعد حد. والأم لا تعلم ما تفعل، والأب، برغم ثقافته، وحكمته، يقف عاجزاً أمام المشكلة.

* * *

وفي يوم، اقترح طبيب العائلة أن يحمل الوالدان، الطفلة **هيلين** إلى الدكتور «**ألكسندر غراهام بل**» المقيم في «**واشنطن**». وهو «**بل**» الشهير، مكتشف جهاز التلفون وكان خبيراً في تعليم الصم، والبكم. واكتشافه التلفون جاء مصادفة، بينما كان يحاول ابتكار وسيلة، يساعد بها زوجته الصماء، على استعادة سمعها.

حالما تعرف الدكتور «**بل**» على الطفلة **هيلين**، أدرك أنه لن يستطيع أن يفعل الكثير لمساعدتها، فاقترح على والديها أن يقصدا مؤسسة «**بركنز**» للمكفوفين في مدينة «**بوسطن**» وهناك التقيا الآنسة «**آن سوليفان**»، الأستاذة ابنة العشرين سنة، والتي استعادت نور عينيها حديثاً، نتيجة عملية جراحية أجريت لها.

وقد كتبت عنها **هيلين** فيما بعد: «**حضورها إلى منزلي، كان أعظم حدث في حياتي**».

بالطبع، كانت العلاقة التي نمت بين الأستاذة والطالبة الفريدة، أغرب علاقة تقوم بين كائنين.

وتكتب **هيلين** في ذلك فتقول: «**ولادتي الروحية والفكرية كانت في تاريخ ٣ آذار عام ١٨٨٧**» أي يوم بدأت تتعلم على آن.. ولكن كيف؟..

كان الدرس الأول شاقاً جداً، وعلى المعلمة أن تلقن تلميذتها أصول تناول الطعام، والجلوس إلى المائدة، بأسلوب مهذب. ولم يكن الأمر سهلاً، فعلا صراخ الطفلة والمعلمة معاً، وتبادلتا الضرب بالأيدي، ولما هدأت ثائرة الطفلة المتوحشة، حملت إليها **آن** دمية، وضعتها بين يديها، وجعلتها تتلمسها، ثم رفعت الأنامل الصغيرة إلى شفتيها لتجعلها تتحسس بها مخارج الحروف.

لكن بدء النجاح الحقيقي الذي سجلته المعلمة جرى قرب مضخة الماء في الحديقة: كانت **آن** تمسك بيد تلميذتها، وتتنزهان معاً في رحاب الحدائق التي تخص العائلة، وأبصرت الماء يتدفق من مضخة هناك، فأمسكت بيد الطفلة وجعلتها تحت الماء وهي تكرر إسم السائل البارد: **ماء... ماء**... وتمرر أنامل الصغيرة فوق شفتيها، حتى تمكنت هيلين من لفظ كلمة ماء.

وهكذا نمت الأعجوبة، وخرجت الطفلة من «العالم الآخر» والذي لم يكن عالماً حقيقياً، وذلك بعد انقضاء شهر واحد على قدوم **آن** إلى **عائلة كيللر**.

* * *

وكتبت **هيلين** عن هذه التجربة فقالت: «**فهمت الكلمة، وصار عقلي يرف، وخرجت منه لهبة مجنحة، وأدركت للتو، أن تلك اللهبة، ستنقذ حياتي بعد اليوم**».

وكانت اللهبة نفحة حياة جديدة نفحتها بها الإنسانة المخلصة التي لازمتها خمس عشرة سنة. كانت خلالها، ترافقها إلى الصف، وتنقل إليها، بواسطة لمس اليدين، المحاضرات، والدروس، وبهذه الطريقة ذاتها، كانت تروي لها حكاية الأفلام السينمائية، والمسرحيات.

وبقيت **آن** رفيقتها ومعلمتها حتى بعدما تزوجت الناقد المعروف «**جون ماسي**» وانتقلت **هيلين** لتعيش مع الزوجين، ولم تفترق عنهما حتى وفاة **آن** عام ١٩٣٦ .

مثل زهرة عجيبة، راحت **هيلين** تتفتح، وتستنير بالمعرفة ولم يكن هناك أي حد لشغفها، وتوقها إلى التعلم. ولم تكتف بالدراسة الثانوية، بل صممت على دخول الجامعة.

وكان لها ما أرادت حين قبلت في كلية البنات التابعة لجامعة «**كامبردج**» ومنها انتقلت إلى كلية «**رادكليف**» في الجامعة نفسها، حيث تخرجت عام ١٩٠٤ بدرجة مميزة.

وخلال تلك السنة وضعت كتابها الأول «**قصة حياتي**» ونشر الكتاب مسلسلاً في أشهر مجلة نسائية، كما ترجم إلى خمسين لغة، بما فيها العربية، وأصبحت حكاية **هيلين كيللر** على كل شفة ولسان.

بعد ذلك لم تعد تتوقف عن الكتابة، وراحت تدبج المقالات، وتدعى إلى إلقاء المحاضرات وتؤلف الكتب، التي كانت كلها تدور حول تجربتها الإنسانية الرائعة.

* * *

أتقنت **هيلين** الكتابة بأحرف «**براي**» النافرة، وكانت تستخدم، في

الكتابة، آلة طبع خاصة، ويؤكد أساتذتها، وناشرو كتبها، انها قلما كانت تخطئ في الطباعة.

أما بالنسبة إلى الخطابة، فقد ظل هناك عائق يتحداها، فهي لا تسمع أصوات الحروف لدى النطق بها، وكان يصعب عليها أن تميز بين الهمس والصراخ. كما كان عليها أن تتدرب فترة طويلة، كي تخفف من رتابة الالقاء، وتضفي التناغم على مخارج الحروف.

وقد تخطت هذه العقبة، بفضل المثابرة والاجتهاد والإرادة الصلبة. وراحت تطوف بين بلدان الشرق والغرب، تخطب في الجامعات والمؤسسات الثقافية، وتتحدث إلى الناس.

ثم قامت بجولة بين مستشفيات بلادها على إثر الحرب العالمية الثانية، من أجل مساعدة المكفوفين والصم الذين أصيبوا في الحرب. وكانت تشجعهم بكلامها، وتحثهم على الخروج، من عوالم الصمت والظلام، للتغلب على اليأس.

وتوجهت بعد ذلك إلى أوروبا والشرق الأقصى. وكانت، حيثما حلت، تستقبل بالتهليل والاعجاب. وقد أغدق عليها كثير من ألقاب الشرف، كما حصلت على شهادة دكتوراه فخرية من جامعتين. وفي العام ١٩٣١ انتخبت **واحدة من أهم عشر سيدات في العالم.**

* * *

لكن ألقاب العالم بأسره ما كانت لتلهيها عن المهمة الأولى في حياتها، وهي مساعدة المعاقين، وبكل الطرق والوسائل الممكنة. وبفضل جهودها، أنشئت أول مؤسسة للمكفوفين عام ١٩٢٣ .

وكانت قد جمعت، خلال جولاتها، مبلغاً كبيراً من المال، خصصته لدعم تلك المؤسسة.

* * *

بعد وفاة معلمتها آن، اتخذت **هيلين** مرشدة ورفيقة مكانها هي «**بولي تومبسون**» وقد رافقتها في رحلاتها وتنقلاتها.

وفي العام ١٩٤٦، بعد أنقضاء عشر سنوات على وفاة معلمتها الأولى، وانتقالها إلى ضواحي «**نيويورك**» دعيت إلى القيام برحلة استطلاعية حول العالم، وقد احترق منزلها، في أثناء غيابها، وأتت النار على كل ما يحويه من ذكريات، بما فيه مكتبتها النادرة، والمطبوعة بحرف «**براي**». وتنادى فريق من الأصدقاء، وأعادوا بناء المنزل، كما سعوا إلى التعويض من المكتبة.

وفي عام ١٩٥٥ قامت **هيلين** برحلة إلى بعض البلدان العربية، ومنها لبنان، وزارت العواصم الأوروبية. وفي لقاء لها مع أحد وزراء التربية فيها، قالت: «**ما دامت هناك نفس واحدة تحيا في عزلة الظلام، فإن السلام العالمي سيبقى حلماً. إن الحضارة لم تعد مسألة إقليمية**».

* * *

هذه شهادة إنسانة، عرفت أنها ليست لفئة معينة، ولا لبلد واحد، بل هي ملك الإنسانية، وقد وضعت تجربتها أمام أعين الجميع، كما أن إصرارها على التحدي والنجاح، قلما يوجد له مثيل.

فلنقرأها تقول: «**إن الفرح ضروري من أجل النمو والتقدم، والإِنسان الذي يعجز عن اعتبار الفرح طاقة هامة في الوجود، يفقد**

معنى الحياة. إن الفرح هو ذلك الشعور الروحي الذي يضفي على تقلبات الحياة، وحدة وتناغماً وعظمة».

أما الأديبة «**ماريا مان**» فقد كتبت عن المرأة التي لم تسمح لعاهاتها بأن تحرمها من الابتهاج بالحياة فقالت: «**وجهها هو وجه الحب. والعجيب في هذه المرأة، أنها ما تكاد تلامس حياة القريبين منها، حتى تترك لديهم آثارها السحرية، وتبدل حياتهم إلى الأفضل. وحيثما تنقل المرأة العمياء، الصماء، والبكماء خطواتها، يتدفق النور، وتمحى الظلمات، وتبعث في النفس الإنسانية العزّة والشموخ ويزول الحقد، ويتلاشى في بحيرة من اللطف والمحبة**».

وكتب «**مارك توين**»، عام ١٩١٠: «**ان اعجب شخصيتين في القرن التاسع عشر هما: نابوليون وهيلين كيللر**».

وإذا حاولنا أن نوجز حياة المرأة التي أغمضت عينيها في اليوم الأول من شهر حزيران، عام ١٩٦٨، أي قبيل ذكرى ميلادها الثامنة والثمانين، فنقول: انها عاشت حياة حافلة، غنية بالعطاء الفكري والروحي. كانت شعاعاً في السبل المظلمة، وتحدياً متواصلاً لكل من يقف بتخاذل أمام أية عقبة تعترض سبيل تقدمه ومسيرة صعوده. وكانت، إلى ذلك، امرأة منفتحة متفائلة، لم تحرم من معطيات الحياة الفنية والفكرية..

أما معلمتها، **آن سوليفان**، فكانت مثال المرأة المتفانية من أجل قضية، هي قضية الإنسان.

ويبقى معنا، صوت **هيلين** في ختام الكلام عنها:

«**إن الذين يراقبونني من شرفة وجودهم المعافى، يرثون لحالي**

ولكن، مهما بدا طريقي مظلماً في أعينهم، فإني أحمل نوراً عجائبياً في قلبي، فالإيمان ينير كل سبيل أسلكه».

وقد نالت الجوائز وألقاب الشرف التالية:

* جائزة الرئاسة للحرية - وهذه أرفع رتبة مدنية - ١٩٦٤ .
* دكتوراه فخرية في الآداب - جامعة فيلادلفيا - ١٩٣١ .
* دكتوراه فخرية في الحقوق - جامعة غلاسكو - ١٩٣٢ .
* وسام سانت سافا - يوغوسلافيا - ١٩٣١ .
* ميدالية روزفلت للتعاون المتفرد والمتميز - ١٩٣٦ (بالاشتراك مع آن سوليفان).
* تسميتها واحدة من أشهر عشر نساء في العالم - ١٩٦٥ .
* وضعت عنها مسرحية بعنوان «يقظة هيلين كيللر».
* وضع فيلم سينمائي عن حياتها وصراعها.

- قصة حياتي - هيلين كيللر.
- الموسوعة البريطانية.
- مجموعة مقالات من المركز الثقافي الأميركي في بيروت.

فرجينيا وولف



«حياتي الغامضة، عناصرها: الماء والهواء والليل الطويل».



الكتابة عن سيدة الكلمات المضيئة عمل شاق، خصوصاً عندما تكون غايتها رسم وحه السيدة وشخصيتها. ذلك أن **فرجينيا وولف** زارت عالمنا، مثلما تزور النجوم الآتية من بعد ألوف السنين الضوئية، ثم رحلت عنه مخلفة بعدها تساؤلات تتشظى، مع مرور الزمن، مثلما يتشظى النور على حد زجاج مكسور.

ويبقى عطاؤها علامة مميزة على مفرق الأدب العالمي. بل إنه تفجر عبقرية نسائية تزداد، مع مرور الأيام، تألقاً وبهاء.

* * *

تذكر، من أيام طفولتها، أزهاراً قرمزية، وأزهاراً ليلكية فوق ثوب أسود.

وتذكر فوح العطر من حضن أم، اعتبرها أهل زمانها، إلهة من إلهات الاغريق، لفرط ما وهبت من جمال وتوهج.

وتذكر، أيضاً، سماع صدى الأمواج تتكسر فوق صخور الشاطئ القريب، وتعبر إليها، من خلف النوافذ والأبواب الموصدة، وكأنها تنقل إلى سمعها أسرار عوالم خفية.

كان اسمها **أدلين فرجينيا ستيفن**... طفلة حلوة، رقيقة المشاعر وذكية، وتعيش بطمأنينة وسلام، في وسط عائلي سعيد، يؤمن لها الترف الذي تعيشه عائلات الطبقة المتوسطة العليا. وهي بطبعها، تتجاوز

طبقتها، وتميل إلى الأرستقراطية التي مارستها، في حياتها، وفي كتابتها.

* * *

ولدت **فرجينيا** في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨٨٢ في لندن. أبوها **لسلي ستيفن** وأمها **جولي داكوورث**. جميلة الجميلات، كما يعرفها كل من كتب عنها.

و**فرجينيا** الولد الثالث في العائلة، والابنة الثانية. شاركها جناح الأطفال أختها **فانيسا** (وقد أصبحت فيما بعد فنانة مشهورة) وأخوها **طوبي** ثم الأخ الأصغر **أدريان**. وأبواها كانا متزوجين من قبل، ولهما أولاد. وهذا ما جعل الجو صاخباً، تلتقي فيه شتى الأعمار والطباع.

* * *

الأب ميسور الحال مادياً. وينتمي إلى طبقة المفكرين. لكنه ظل بعيداً عن أجواء الفنانين والأدباء البوهيميين، مفضلاً الجو التقليدي المحافظ على الطقوس والعادات الموروثة. وكان بيته يعج بالضيوف، كبار الضيوف، من كتّاب وشعراء ورجال سياسة، وذلك بسبب إدارته مجلة فكرية، أدبية. عنه ورثت الفتاة النزعة الأدبية، مثلما ورثت عن أمها جمالاً رقيقاً، أثيرياً، ظلت منفصلة عنه، بفكرها ووجدانها. مفضلة أن تبرز من خلال الذكاء والإبداع، لا الجمال الجسدي الموروث. وفي الواقع، أن علاقة **فرجينيا** بجمالها، ظلت غريبة، معقدة وغامضة. وحاول كتّاب سيرتها أن يجدوا لها شتى التفسيرات. لكن الأثر الأهم هو ما خلفه رفضها انوثتها وجمالها على أدبها ومنذ المراحل الأولى.

* * *

حصلت **فرجينيا** دراستها الابتدائية والثانوية، في البيت، وتحت إشراف أبيها. وتأثرت بعدد من أدباء زمانها، خصوصاً أصدقاء الوالد، والذين كانوا يترددون على **دار آل ستيفن** لعقد ندوات أدبية. وأحبت بصورة خاصة الكاتب الروائي والشاعر **توماس هاردي**. كما تأثرت بالروائي (**أ.م. فورستر**) وأسارع لأضيف هنا، بأن الشبه الذي رصده النقاد، بين أسلوبها (تيار الوعي) وأسلوب المجدد الآخر **جيمس جويس** ليس ناتجاً عن تأثر بالكاتب، أو إعجاب بأعماله. على العكس، كانت **وولف** تبدي اشمئزازها من واقعيته التي تبلغ «**حد التبذل بل السفاهة**».

أعود إلى مراحل دراستها. فقد صدمت صدمة كبيرة، حين رفض طلبها دخول الجامعة، وشعرت بالغبن يلحق بها، بسبب جنسها فقط. وقد حزّ في نفسها، بل آلمها أشد الألم، أن يسمح لأخيها أن يدخل تلك الجامعة بسهولة بينما فرض عليها أن تتابع تحصيلها على نفسها.

وظل موقف الجامعة من طموح الفتاة مهمازاً في الخاصرة، دفعها إلى شن حرب شعواء على جمود المؤسسات، والتمييز بين الجنسين، في المجالات الفكرية، في حين أن المرأة لا تقل ذكاء أو طموحاً عن الرجل، فلماذا توصد في وجهها أبواب التقدم؟... لماذا تحرم فرصة الوصول؟

ولم تَنْسَ في مراحل النضج، أن تستخدم خبرتها المخمرة، الناضجة، وتصبها في دراسات أو محاضرات دافعت فيها عن قضية المرأة بحماسة، خصوصاً حقها في التعلم، أسوة بالرجل. لكن ذلك جاء بعدما خرجت من محيطها التقليدي، وانضمت إلى جماعة

«**بلومسبيري**» الفنية، والفكرية. وكانت شقيقتها **فانيسا** رائدة التجديد، والرفض لكل ما هو محنط، ومحدود وتقليدي. وإذا كان لدى **فرجينيا** استعداد للخروج على المألوف، فإن اختلاطها بهذه التلة المتحررة، دفعها شوطاً أبعد في متابعة سعيها وتثبيت قدميها فوق الأرضية الجديدة.

* * *

وإذا كانت المؤثرات الفكرية والاجتماعية تركت إنطباعات عميقة في نفس الكاتبة، فإن الصدمات المأساوية، التي تلقتها في مطلع سنوات المراهقة، تركت آثاراً أعمق، في كيانها، ولازمتها مدى الحياة، حين تحولت إلى مرض عصبي يذر القلق في نفسها، ويدفعها إلى الاستمرار في الصراع، كي تؤمن بقاءها في عالم الأصحاء.

* * *

كانت في الثالثة عشرة من عمرها، حين فقدت أمها. توفيت **جولي** الجميلة فجأة بسبب الارهاق، إذ لم تعد تستطيع احتمال أعباء الأسرة الكبيرة والزوج المتطلب.

والفتاة التي سعدت فترة الطفولة، وفي مطلع سنوات المراهقة، بالعيش الهنيء في ظل الشجرة الوارفة الظلال، السخية العطاء... وجدت نفسها، في العراء. تركها رحيل أمها في صحراء من القحط العاطفي. ولم يلبث شعورها أن تحول إلى غضب ورفض لقبول الواقع. غضبت على أمها بدلاً من أن تحزن إذ لم تستطع أن تدرك كيف تتركها وتغيب!...

ثم راحت مشاعرها تأخذ منحى آخر، حين فطنت إلى أن الأب،

كان من أول الأسباب التي أرهقت أمها، ولم يكفه ما خلفه غيابها في نفوس الأولاد، من ألم، بل فرض عليهم فترة حداد تقليدية، زادتهم ضياعاً وألماً. وبدلاً من أن يسعى إلى التخفيف عن أولاده، راح يغرقهم أكثر فأكثر، في مستنقع الحزن المظلم، وفي جو التقاليد الخانقة. كما أنه بات كثير الطلبات، وفرض على بناته، أن يقمن مكان الأم، بالاهتمام به، ورعايته، وخدمته.

تصدت للمهمة، **ستيللا داكوورث** إبنة زوجته، والتي ورثت عن أمها جمالاً فاتناً، فراحت تخدمه وتعطف عليه، وتملأ، قدر الامكان، فراغ أيامه، بالعناية، واللطف والخدمة الحسنة. لكن **ستيللا** صبية، وفي سن الزواج فلم تلبث أن أحبت شاباً، وتزوجته. وهنا ثار الأب، بدافع الأنانية والغيرة، واعتبر زواجها تصرفاً أنانياً من قبلها، إذ كيف تتركه، لتكون لرجل آخر؟..

وحاولت الفتاة بلباقة، أن تفهمه بأن هذا حقها الطبيعي، ولن تتخلى عنه، بل ان منزلها الجديد، سوف يكون في الجوار. لكن ذلك لم يبدل موقفه، ثم حلت المأساة. فخلال رحلة شهر العسل، أصيبت العروس بجرثومة لم يهتد الطب إلى علاج لمكافحتها، وهكذا توفيت عروساً. وسجلت المأساة العائلية الثانية في دفتر العائلة، وفي اعماق أختها الصبية، **فرجينيا**.

* * *

طبعاً، لم يخفف الحادث المأساوي من تعسف الأب، وطغيانه، فهبت الشقيقة الكبرى، **فانيسا** للنجدة، وراحت تسهر على رعاية ابيها، بينما **فرجينيا** تنظر إلى ما يجري بألم، بل ورفض، جعل علاقتها

مع أبيها، تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، خصوصاً وأنها، دون سائر الأخوة والأخوات، أصيبت إثر موت أمها، بانهيار عصبي، تكرر حين فوجئت بموت أختها اللطيفة. وبدأت يد غامضة، تطرق بوابة عالمها وتدعوها إلى المزيد من التأمل، ومحاولة فهم ما يجري، ثم توظيفه في قناة خلاصها الوحيد، الأدب.

* * *

نعم. اكتشفت أن لا مهرب امامها، سوى الكتابة، تماماً مثلما كانت المطالعة، الملجأ الذي يحميها من أذى المجتمع، كلما ضاقت ذرعاً بتفاهاته. وهكذا انكبت على الكتابة، وراحت تمرن قلمها، في إعداد المقالات النقدية أولاً، ثم جربت كتابة الرواية.

وظلت أعمالها الأولى عادية. لكن قلمها ميال إلى المشاكسة، وإلى الرفض، خصوصاً رفض الأساليب المألوفة وما تفرضه المؤسسات على الفرد، ونشرت مقالات نقدية، هاجمت أدباء راسخين، لكنهم، في نظرها، سطحيون يرددون ما سبق أن ردده أسلافهم عبر السنين الماضية.

في تلك الأثناء، كان يسيطر على الأديبة شعور رهيب، كلما تلمست يدها الثغرة الشاغرة إثر غياب أمها. ولم يكن طيف الأم ليفارقها. فجلست تكتب روايتها «**إلى المنارة**» لكي تتخلص من الهاجس. وقالت فيما بعد، إن تجربتها تلك كانت أشبه بالذهاب إلى عيادة نفسية، خففتْ عنها بعض الحزن الطاغي.

في أثناء الكتابة، كانت تبلغ أوج النشوة والسعادة. فالذي يدور في عالم العقل الذكي، هو ما يهمها. ولا شيء يؤثر بعد ذلك. لكنها، ويا

للأسف، اكتشفت أن العقل، محجوز في جسد... وهو الجسد الذي رفضت التعامل معه، والخضوع لسطوته.

* * *

عام ١٩٠٤ توفي أبوها **السير لسلي ستيفن**. ومع أن فراقه لم يسجل تأثيراً يذكر في حياة الكاتبة، إلا أن أحزانها، بل حالة الانهيار العصبي عاودتها بعد سنتين، حين توفي **طوبي** أخوها المعبود، والأثير في قلبها.

وظلت مدة طويلة تصارع ضعفها، وتحاول أن تتغلب على حزنها وقلقها بالكتابة. كانت تكتب روايات، ويوميات حميمة، ومذكرات، ومقالات تنقد بها ادباء عصرها...

* * *

عرفت الكاتبة مرحلة جديدة من العيش مع أختها **فانيسا**، وهي أكبر منها، إنطلقت في دروب الفن، وبات لها أصدقاء من الطلاب الجامعيين، ومن جامعة **كامبردج** بالذات. وهذا ما أعطى **فرجينيا** فرصة اللقاء مع هؤلاء الشباب الذين يمثلون الحياة الجديدة التي تبشر بها نظرياً. ولم يمنعها عن المشاركة زواج **فانيسا**، عام ١٩٠٧، بـ «كلايف بيل»، بل إنها ازدادت حماسة للتيار الجديد.

وفي العام ١٩١٢ تزوجت هي أيضاً برجل فكر، وناشر ومؤلف هو **ليونارد وولف**. وعاشا معاً في دارهما الشهيرة في **آشام**... لكن الرجل الذي أصبح بطل حياتها الواقعية تحول، خلال ثلاثين سنة من زواجهما، إلى ضحية مأساتها النفسية.

* * *

هنا، أتوقف لحظة لأشير إلى أهمية هذا الزواج على عطاء الكاتبة، فمنذ لحظة اللقاء الأول، اكتشف **ليونارد** أنه يحتوي بين ذراعيه إناء من الكريستال الهش، وأدنى ضربة، يمكن أن تبدده. لذا راح يحافظ عليه بكل ما أوتي من قوة، فهو كاتب ومفكر. ويقدّر ما معنى أن يكون المرء على ذلك الشفير الخطر، المترجِّح بين دنيا الواقع والعقل، وعالم الغموض اللامحدود...

وكانت رحلات **فرجينيا** كثيرة، صوب ذلك العالم. وبقي هو الملاك الساهر على حراستها، حتى إذا لاحظ أن الخطى تشط بها مد لها الذراع، سنداً، وعكازاً تتوكأ عليه.

ولم يكن المرض، يؤثر في إنتاجها. بل ان مرضها، أدخلها إلى عوالم من الغرابة، ما كان لها أن تختبرها وتعرفها، في الحالات العادية.

وكانت هي مغامرة فكر. فأعطت اندفاعها أقصى مداه... وكأنما كانت في مبارزة دائمة مع هذه العطية العظيمة، التي وهبها الإِنسان، وفي تحد دائم، لاختبارها، ومدى فاعليتها، بل وجدارتها.

لم يكن لذكاء **فرجينيا** حدود. كذلك لم يكن هناك حد لطموحها. واندفاعها فوق خطوط المغامرات الكبرى، في الذات الإِنسانية، وكل ما ترتبط به، في وحودها، من عناصر وكيانات.

ولم تكن كتابتها خيالية، بل انها رصدتْ الواقع الخارجي، المنظور، مثلما أدخلت القارئ إلى دهاليز العقل الباطني وراحت تخترقه إلى أقصى مداه.

كان الواقع، بالنسبة إليها، ذهنياً، وعقلياً. أما واقع الجسد، فظل

مقصراً. ولم تتوقف عنده كثيراً، ولم تركز عليه، برغم اهتمامها بالعاطفة الإِنسانية، ومقدرتها على تفجير الطاقات الكامنة. ولم تكن تفرق، في العاطفة، بين جنس وآخر. فالعلاقة الإِنسانية، لديها، تتخطى الحدود الجنسية.

* * *

إن دخول رجل مثل **ليونارد وولف** حياتها، كان مهماً، لأنه تمكن من حملها، لتتجاوز العقبات الناهضة في سبيلها، وعند منعطفات حياتها. كما أن المطبعة التي أنشأها أخذت الكثير من وقتها واهتمامها، وربطتها بأشغال عملية، ما كانت لتفكر فيها، مثل الطباعة، تجليد الكتب وإلى ما هنالك من اعمال تتطلب مهارة يدوية، لا حدة ذكاء وحسب.

وفي تلك الفترة، بدأت تنشر مقالات نقدية، في الملحق الأدبي من صحيفة «**تايمز**» اللندنية. وشنت حملة شعواء على الكتّاب التقليديين، داعية إلى قيام نهضة جديدة، ونفض الغبار «**الفيكتوري**» عن الفكر والأدب. وسارت هي في طليعة الركب، يشجعها الزوج المؤمن بعطائها، وبمقدرتها، والذي وضع عليها شرطاً، قبل الزواج خلاصته: «**إذا توقفت عن الكتابة، بعد الزواج، ثقي بأني سأطلقك...**» وكانت تردد هذه العبارة بفخر وتضيف: «**زوجي يعتقد أن كتابتي هي أفضل ما عندي**».

وهذا ما كانت تعتقده هي وتعيشه. وفي بعض الأوقات كانت ترتد على نفسها، تؤنبها على أنانيتها وتتساءل: «**كيف يمكن لإِنسان، أن يحبني، أنا المرأة الأنانية؟**»...

وتلك الأنانية ضرورية لكل فنان... بدونها لا يستطيع عطاء. وهذه مشكلة الفن منذ أن وجد. لكن الكاتبة الشديدة الغيرة على عملها، لم تحصر نشاطها في النقد والرواية، بل مارست التعليم، قبل الزواج مُدَّةَ سنتين، إنطلاقاً من غيرتها على بنات جنسها، ومن اقتناع أكيد لديها، بأن هناك تقصيراً في حق تعليم الفتيات، وإتاحة الفرص لهن، كي يتمكن من إنماء مواهبهن وطاقاتهن. وللسبب ذاته أقبلت بحماسة على إلقاء المحاضرات في جامعة **كامبردج** عام ١٩٢٨، أي في أوج مراحل نضجها، وكانت تفضل الحديث إلى الطالبات.

ونشرت محاضراتها في كتاب لا يزال حتى اليوم، مرجعاً في شرح أوضاع المرأة. أما العنوان الذي اختارته لهذا الكتاب - البحث - فهو «**غرفة من أجلها**». وهاء التأنيث هنا، تعود إلى المرأة الكاتبة، التي تحتاج، كي تتفرغ لعملها الإبداعي، إلى غرفة خاصة بها، وإلى دخل مالي يجعلها مستقلة، ويوفر عليها القيام بأعمال بعيدة عن ميولها... كما ركزت على المصاعب التي تواجهها المرأة الكاتبة، في عالم يسيطر عليه الرجل.

واعتبرت تكليفها القاء دروس في **كامبردج** شرفاً لم تحصل عليه امرأة من قبل. ولشدة تأثرها كتبت في مذكراتها: «**تصوروني، أنا الفتاة التي درست على نفسها، تتقدم الآن إلى هذا الشرف...**» لكنها رفضت الاستمرار في التعليم، لانشغالها بالكتابة. وحين قدمت إليها **كامبردج** درجة فخرية، رفضتها، ذاكرة أن تلك الجامعة بالذات، صدت قبولها كطالبة حين كانت في أمسّ الحاجة إلى التعلم.

كذلك رفضت درجات فخرية من جامعات أخرى، وألقاباً ملكية، وذلك كي لا تناقض نفسها الثائرة على المؤسسات، وحصر الأعمال

ضمن وتحت عناوين سلفية. لكن سلبيتها تلك لم تؤثر على شهرتها، وتحليقها السامي في فضاء الأدب، برغم صعوبة اسلوبها، وغرابة المواضيع التي عالجتها.

* * *

لا بد من المرور بمسيرتها الأدبية، لنعلم سر شهرتها وخلودها، فهي تعد، مع **جيمس جويس**، طليعة كتّاب زمانها المجددين. بل إنهما وراء خلق رواية حديثة، ولغة لم يسبق أن كتبها أحد من قبل. مع العلم أن **فرجينيا** لم تكن معجبة **بجويس** ولا بأدبه كما سبق وأشرت، وبالتالي، لم تتأثر به، بل صادف أنها لجأت مثله، إلى استخدام تيار الوعي، وكانت من جهتها، تجري تجارب في الذات الواعية وفي اللاوعي، لتعرف إلى أي مدى يمكن أن تسبر أغوار النفس البشرية. كذلك لعبت، بنجاح، لعبة الزمن، فربطت الحاضر، بالماضي السحيق، من خلال تجربة الفرد. وليس سهلاً على القارئ أن يفهمها، ما لم يدخل إلى دائرتها، ويسير مع التيار. كذلك تبقى شخصياتها، منفصلة عن الواقع، وكأنها مخلوقات عالم جديد، ترتدي وجوهاً غير واضحة المعالم. لكنها تلازم القارئ ثم لا تلبث أن تصبح بعضاً من ذاته.

اتبعت **وولف**، في اعمالها الأولى، أسلوباً تقليدياً، ثم راحت تخرج من هذا النمط خصوصاً في روايتي «**مسز دالاوي**» و «**إلى المنارة**» حيث برزت بوضوح مهارتها التقنية. وأعطت شكلاً منظماً، ومدروساً لكل من هاتين الروايتين، باستخدام الشعر، والصورة، وقيود الزمن... وكان التاريخ هاجسها في كتاب «**أورلاندو**» الذي نشر عام ١٩٢٨ لكنها عادت إلى الرواية عام ١٩٣١ مع ظهور روايتها

«**الأمواج**» التي سجلت تيار الوعي وحركة العقل لست شخصيات، وذلك من الطفولة حتى الشيخوخة.

والأشخاص يمثلون ستة أنواع من الوعي، ترمز إلى المراحل التي يمر فيها عمر الإنسان فوق الأرض.

وآخر أعمالها، والذي لم تضع عليه اللمسات الأخيرة، كان روايتها «**بين الفصول**» وقد صدرت بعد وفاتها. وبالطبع لها أعمال أخرى بينها المذكرات، وخمسة أجزاء تحوي دراساتها النقدية.

وكانت الكتابة، بالنسبة إلى هذه الأديبة، عملية مرهقة للفكر والروح والجسد... إذ ترتمي في الإبداع بكل ذرات وعيها، ثم تخرج، مع نهاية الكتاب، مرهقة، بل مصابة بانهيار، من الانهيارات التي رافقتها طوال حياتها، وظلت التحدي الكبير والمختبر الذي تدخله، لتخرج منه بغرائب الأفكار... وعين زوجها الساهرة ترصد حالها طوال ثلاثين سنة. لكن ما الذي جرى في ذلك اليوم المشؤوم؟

* * *

كانت **وولف** بطبعها مسالمة، رافضة العنف. ورفضها ظل طاقة كامنة، حتى دقت طبول الحرب العالمية الثانية، وطاولتها في قلب دارها، فقد تهدم قسم كبير من منزلها، وخسرت منزلاً آخر قديماً. واضطرت أن تلجأ إلى الريف، وتبدل نمط حياتها. وهي، في تلك المرحلة الدقيقة من العمر، لا تعلم ما إذا كان الخطر يتوقف عند ذلك الحد. لكنها لم تفقد شجاعتها ولا روح المرح. فقد كتبت في مذكراتها: «**أو يكون غريباً أننا نقوم بنزهتنا المعتادة قرب البحيرة، ونبصر حفرة من آثار القصف الجوي، ثم نصغي إلى الطيران الحربي**

يقترب، واعداً بالمزيد من الدمار.. فالتصق بجانب (ل.) – أي زوجها ليونارد – مقررة أنه من الأفضل أن يقتلوا عصفورين بحجر واحد».

وفي مكان آخر تقول: «**لا... لا أريد أن أموت الآن...**».

فما الذي حدث إذاً؟...

يكتب **ليونارد** في مذكرات نشرت بعد وفاتها، أنه كان هناك إنذار يتحرك كلما أصابتها نوبة سويداء: «**تبدأ بألم في الرأس. ثم تفقد شهيتها للطعام، ومقدرتها على التركيز، وتعتزل الناس**». ولم ينتبه لخروجها، صباح الثامن والعشرين من شهر آذار عام ١٩٤١ .

كانت قد أنهت رواية «**بين الفصول**»، وخرجت لتتمشى، كعادتها، في الحديقة. لكنها لم ترجع. وحين تفقدها زوجها، لم تكن في غرفتها، فهرع إلى الحديقة، ثم إلى ضفة نهر «**أوز**» القريب من سكنهم فوجد عكازها، ملقى على الأعشاب. عندها، أعلم الشرطة، وبدأ البحث عنها، من دون التوصل إلى نتيجة.

وبعد انقضاء أربعة أسابيع، وبينما كان الأولاد يلعبون على ضفة النهر، لفت انتباههم جسم غريب لفظته المياه... وكان ذلك جسدها، عاد إلى الالتحام بالمدى، وبالبحر الأرحب، الذي رافقها بمده وجزره، بصمته وصخب أمواجه، منذ كانت طفلة.

نقل الشرطي الخبر إلى زوجها وأضاف: «**عثرنا على كمية من الحجارة، في جيوب معطفها. تظن أنها ملأت جيوبها بالحجارة، ثم مشت إلى قلب الماء**». كما عثر زوجها على رسالة موجهة إليه.

«**أحس بأني على حافة الجنون. حاولت. لكني لم أستطع**

الاستمرار. أدين لك بكل اللحظات السعيدة في حياتي. كنت مثال الزوج الرائع. لن أقوى على إفساد حياتك بعد اليوم..».

وقد أحرقت جثتها، ودفن رمادها، تحت واحدة من أشجار الحديقة.

* * *

ويبقى من بعدها التساؤل:

- لماذا اختارت هذه الميتة، وكانت هناك أكثر من وسيلة، تجعل المهمة سهلة؟ أتُراه نداء الأعماق خرج من بين «الأمواج» التي خلدتها في روايتها الشهيرة؟ أم هو اندفاعها لوضع نقطة الختام، عند آخر سطر، لأعظم رواية كتبتها: حياتها الغامضة، الغريبة، والتي كانت عناصرها: الماء، والهواء والليل الطويل؟...

- حياة فرجينيا وولف - فيليس روز.
- الموسوعة البريطانية.
- مجلة فوسفور.

آنّـا بافلوفا



«حيثما تضع قدمها، تنبت الزنابق والورود...».



قال فيها احد شعراء زمانها: «**حيثما تضع قدمها، تنبت الزنابق والورود...**».

وكانت لها مشاتل في معظم بلدان العالم... إذ ان نقلة قدمها لم تقتصر على مكان بالذات... او على رقعة من الارض ضيقة... اذ كان الكون مداها، نثرت في جوانبه سحر فنها، وبهاء وجودها.

* * *

ولدت **آنا باﭬلوﭬا في مدينة سانت بيترسبورغ (لينغراد حاليا)** في ٣١ كانون الثاني، عام ١٨٨٢ . وكانت طفلة ضئيلة، نحيلة، ولم يقدّر احد انها تعيش وتنمو مثل اية طفلة طبيعية. لكنها تجاوزت هذه التوقعات، وعاشت، لتدهش الناس، في مختلف اصقاع الكون، بفنها الفريد. وبعد وفاتها، تحولت الى رمز لفن الباليه.

* * *

لم تكن هناك حدود لطاقاتها او نشاطها. وقد طافت الكرة الارضية، رقصا. وفتح لها فنها الراقي قلوب الرجال والنساء حيثما حلت. وحتى الاولاد، اعتبروها طيفا هابطا على الارض من كوكب خفي، اذ لم يكن هذا الفن معروفا ومنتشرا، من قبل ان تبدأ غرسه في الكون.

واذا شئنا العودة الى لعة الارقام، نكتشف أن هذه الفنانة اجتازت

٣٥٠ الف ميل، منذ ان تركت مدينتها الاولى، حتى نهاية حياتها الفنية، وهذا رقم قياسي، نسبة الى وسائل النقل المتوفرة في تلك الايام.

يقول كتاب سيرتها إن **باڤلوڤا** لم تتوقف يوما عن الرقص؛ وكانت ترقص، الى ان تسقط من العياء، تدفعها نار داخلية، هي من بعض صفات فنها، ودقة حركاتها، وتميّز تقنيتها واسلوبها.

عام ١٩١٠ افتتحت موسم الباليه في دار اوبرا **الميتروبوليتان** في نيويورك، وسجلت بذلك بدءًا لتاريخ هذا الفن في الولايات المتحدة. ولم ترقص في المدينة الكبرى وحسب، بل راحت تتنقل بين عدة مدن، توقظ الوعي على رسالة بهية حملتها ومعها حملت الفرح الى اجيال جديدة، وحفزت العديد من الفتيان والفتيات على احتراف الباليه.

ولم يقتصر الهامها على المبتدئين؛ فان راقصات شهيرات جئن بعدها اعترفن بأنها كانت السبب في تغيير مسار حياتهن. وكتبت راقصة اخرى عظيمة اسمها **اليسيا ماركوفا** في مذكراتها: «**كلما صعدتُ المسرح لأرقص، اشعر بأن روح باڤلوڤا تمتلك جسدي**».

* * *

وظلّت **باڤلوڤا** وحدها تحمل لقب «**فريدة زمانها**» والتي لا «**تقارن مع احد**». عشرات الكتب وُضعت عنها. لكن المؤسف، ان التصوير السينمائي لم يكن متقدما، وقد أخذ لها فيلم في هوليوود، الا انه ظل مقصرا عن اظهار فنها، إذ لم تكن عدسات التصوير قد تطورت الى حد التقاط الحركات الرشيقة الساحرة. لكن وجهها بقي خالدا في

لوحات الفنانين، والمصورين. وهناك تماثيل نُحتت لها كما اهتم النحاتون بتخليد قدميها الصغيرتين. وهناك اكداس من الصحف، وبكل لغات العالم، تحكي قصة تنقلها بين عواصم الارض.

* * *

لم يكن في بدء حياتها ما يَعد بالعظمة التي بلغتها. كانت آنا طفلة وحيدة. وكان ابوها شخصية تافهة، وقد توفي وهي في المهد. وتذكر، من ايام الطفولة، انها كانت تعيش مع امها،وكانتا وحدهما في **سانت بيترسبورغ**، لا اقارب سوى جدتها لأمها، التي كانت تقيم في احدى ضواحي المدينة. وكانت امها تعمل في غسل ثياب الاغنياء.

لكن الام البسيطة والفقيرة، علمت ابنتها اصول الايمان، ووفرت لها بعض الافراح وكانت ترافقها، في المناسبات والاعياد؛ وكانت **آنا** في الثامنة من عمرها، حين حضرت مع امها اول حفلة باليه وسمعت لأول مرة موسيقى **تشايكوفسكي**. وباتت تلك الليلة، منعطفا في حياة الصغيرة.

كانت فرقة الباليه تقدم عرضها في مسرح **مارينسكي**، فاستأجرت الام عربة خاصة تزحف فوق الثلج. وبدت المصابيح على جانبي الشارع كأنها نجوم سماوية. والطفلة تلتصق بحضن امها، ترشف المشاهد الساحرة وتعيش الدفء والنشوة. وبلغت فرحتها الذروة، حين دخلت المسرح وجلست في مقعدها تراقب رقصة «**الجميلة النائمة**». لم تكن القصة غريبة عنها، انما الرقص والموسيقى كانا أبعد من حدود الخيال.

تلك الليلة، حين استسلمت الصغيرة للنوم، راحتْ تحلم بأنها الراقصة الاولى، تقفز وتحلق، بخفة الفراشة. ومن حولها تصدح الموسيقى الرائعة. وحين نهضت في اليوم التالي، طلبتْ من امها ان تسجلها في معهد لرقص الباليه، لكن قوانين المدرسة صارمة، وترفض تسجيل من هن دون العاشرة من العمر. فكان على **آنا** ان تنتظر حتى بلغت السن المحددة، ونجحت في دخول معهد الباليه الحكومي.

* * *

من حسن حظ الطالبة، انها وقعت بين ايدي اساتذة قديرين. وتدرجت على ايدي اربعة منهم. وكانت **روسيا** القيصرية، آنذاك، عاصمة رقص الباليه في العالم. ولما بلغت آنا السادسة عشرة من عمرها، تخرجت، حاملة عن جدارة لقبها: الراقصة الاولى. وكانت التسمية لها وزنها، إذ لم تكن تُمنح الا لنفر قليل من خريجات معهد الباليه.

وحتى تاريخ الحرب العالمية الاولى، كانت **روسيا** تعترف بخمس راقصات من هذا المستوى. والذي افتقدته **باڤلوڤا** في الجمال الطبيعي، حاولت ان تعوضه باتقان فنها، ورشاقتها. وفي صورها، منذ النقلة الاولى، تبدو اشبه بالفراشة الجميلة؛ وحين تخرجت، كانت نحيلة الى درجة الانكسار. لكنها ارتدت ثوبا من «**التيلّا**» البيضاء تزينه براعم الورد، وشعرها الاسود الناعم مفروق في الوسط ويتدلى فوق كتفيها كحبال الليل، اما ابرز معالم وجهها العاجي، فعيناها السوداوان الذكيتان. وحين قامت بجولتها الاولى، لم تلفت انظار الناس؛ فهي صغيرة القد، تبدو في الثياب العادية اقرب الى طالبة؛ وترتدي قبعة

تهبط الى مستوى حاجبيها، وتبدو من تحتها عينان تشرقان بالمرح، والشغف بالحياة.

وقد وصفها عدد من الكتاب، بأنها كانت حزينة، ذلك الحزن الرومانسي الذي لازم الفنانين في زمانها. لكن الذين عرفوها عن كثب اكدوا انها كانت لها طاقة هائلة على المرح والضحك، انما في مجالس الأصدقاء.

وبقي مزاجها كذلك، الى ان أصيبت بالمرض، وراحت حيويتها تذوي تدريجيا...

لقد احبت الحياة، لكنها كرست حياتها ووقتها من اجل عملها وفرقتها وجمهورها. ويذكر بعض من اهتموا بسيرتها، بأنها تزوجت. لكن الذين حققوا في الموضوع، يؤكدون أنها لم تتزوج؛ فقد تعرفت على شاب من الطبقة الثرية، يدعى **فيكتور داندري**، وذلك في مطلع حياتها. وهو مثل معظم الشباب، من تلك الطبقة، كان يهوى رقص الباليه، ويدور في اجواء الفنانين. وحين بدأ نجم **آنا** الصعود، كانت عينه ترصدها. وأبدى اعجابه بفنها. وراح يغدق عليها الهدايا، والزهور، ويدعوها الى حفلات الطبقة الارستوقراطية، كي يُعرّفها الى جمهور أوسع. ومع مرور الزمن، ازداد تعلقه بها؛ وعرض عليها ان يكون مدير اعمالها. وظل في هذا المركز حتى وفاتها. وبالطبع، كان يرافقها في رحلاتها، ويشرف على تنظيم حفلاتها العالمية.

وقد سُئلت الفنانة، حين بلغت منتصف العمر: «**لماذا لم تتزوجي؟**» فاجابت:

- «طالما يسألني الناس هذا السؤال، الجواب عليه بسيط جدا:

اني مؤمنة بان الفنانة الحقيقية يجب ان تكرس نفسها لفنها فقط، ومحظور عليها ان تعيش كباقي النساء، إذ لا يمكنها ان تُحمِّل نفسها اعباء الشؤون المنزلية والعائلية، ثم تقوم بما يتطلبه فنها من جهد وتضحية. هناك هدف، وعلى الفنان ان يتابع سعيه حتى يتحقق، من دون ان تعيقه امور جانبية. وهذا سر النجاح. كنت، في مطلع الشباب، اعتقد أن النجاح يجلب السعادة. والآن اعترف باني كنت على خطأ: فالسعادة ليست سوى فراشة، ترف بجناحيها لحظات، ثم تختفي»...

* * *

وقد تبعت خط ايمانها بدقة واخلاص: فكانت تعمل ولا تتعب او تمل. وقلما ذهبت لتنام قبل الواحدة صباحا. وما تكاد تدق الثامنة، حتى تكون في غرفة التمرينات، تعيد التمارين التي تعلمتها كمبتدئة. وكانت تقضي اشهر السنة، في التنقل بين عواصم العالم، ولا ترتاح سوى بضعة اسابيع، خلال الصيف. ولم تكن تُفرّق بين مسرح وآخر: رقصت، حيثما توفر لها المكان؛ رقصت امام الملوك والملكات، في أقصى الشرق، والغرب... ولم ترفض دعوات من قبائل الشعوب البدائية. لكنها قدمت معظم حفلاتها بين **نيويورك** و**لندن**. وفي العام ١٩١٢ اختارت السكن في العاصمة البريطانية، واشترت منزلا قديما كان يخص الرسام **جوزف تورنر**. ومن اجواء هذا المكان، وحدائقه الرائعة، استلهم **فوكين** فكرة اهم رقصة اشتهرت بها **باڤلوڤا**، وعنوانها **«موت بجعة»**.

ومع انها قدمت الوانا لا تُحصى من الرقصات، فوق مسارح العالم،

كان الجمهور يصرّ، في نهاية كل حفلة، على ان تقدم له المشهد الساحر، حيث الطيف الابيض الجميل، يرف. ويرتعش، قبل ان يسقط في سكينة الموت، يلفّه جناحان ابيضان.

* * *

ولكن حبها للبيت الجميل، لم يؤخرها يوما عن الرحيل، والسفر فوق مسارح العواصم الاوروبية؛ حتى اذا أنهت عقودها فيها، اجتازت المحيط الاطلسي لترقص في كندا والولايات المتحدة. وكانت هناك حين نشبت الحرب العالمية الاولى. وقد رضيت بأن ترقص في السيرك، ستة ايام في الاسبوع، لتحصل مالا، يساعدها على الاحتفاظ بفرقتها. وكان الناس يقصدون «**سيرك نيويورك**» ليشاهدوا الفيلة، وكلاب البحر، والراقصين على الحبال... و **باڤلوڤا** العظيمة تسحر الجمهور بالرقص الكلاسيكي... ولم تعتبر ذلك تقليلا من شأنها، خصوصا وانها كانت قد بلغت ذروة شهرتها، التي قامت على الابداع والاتقان. صحيح ان **باڤلوڤا** لم تُدخل جديدا على هذا الفن، مثلما فعلت زميلتها **ماري تاغليوني**. لكنها، منذ البدء، كانت تشيع حولها، شعورا بالغموض والسحر، تنتقل عدواه الى كل من يشاهدها. وبالطبع، هذه ميزة الفن. لكن التاريخ لم يسجل أن راقصة اخرى، كانت لها تلك الطاقة القوية. فهي تُضرِمُ، في نفوس مشاهديها، النار المتقدة في ذاتها وتنقل الى ارواحهم اعماق مشاعرها الروحية... وتصر، على ان الاسلوب وحده لا يكفي، والفن ليس بالتقنية بل بالروح.

* * *

اما العاملون معها، فقد عرفوها مخلوقة عنيفة المزاج. تكون احيانا هادئة، باردة، وغير متصلة بالتراب؛ وفي احيان اخرى تبكي وتثور لأتفه الاسباب. وقد فرضت على فرقتها قيودا صارمة؛ فكانت تجعلهم يرقصون، الى ان يبقِّع الدم احذية الساتان الناعمة... اما الصغيرات في الفرقة، فكنّ يسقطن من العياء. ويرتفع صوتها آمرا: «**فوق رؤوس الاقدام!... كم رقصت، والدماء تنزف من قدمي!... علينا أن نعمل، وباستمرار نتجاوز انفسنا**».

ومثلما كانت تطلب أقصى العطاء من فرقتها، كذلك كانت تعامل نفسها؛ وعلى مدى السنين التي عاشتها، كانت في سباق مع قوة خفية؛ وكأنما هناك سوط يطاردها، ويدفعها الى البقاء في حركة مستمرة. وحتى بعدما بلغت السن التي تتقاعد فيها راقصات الباليه، فقد ظل **فكتور داندري** يوقع اتفاقات لاقامة حفلات عالمية.

* * *

انقضت خمس سنين على شرائها بيت **لندن**، من دون ان تحط فيه قدما وعندما ترضى بأخذ اجازة لبضعة اسابيع، كانت تقضيها في تصميم الازياء والنحت. وتُذهل اصدقاءها بالتماثيل الصغيرة التي تصنعها، ومعظمها لراقصات الباليه. ومن هواياتها المكتسبة، التصوير. اي انها لم تترك لحظة من لحظات عمرها، للفراغ...

وبينما كانت تقوم بجولة في اميركا الجنوبية، بلغتها انباء الثورة الروسية. ولم تكن لديها اية وسيلة للإطمئنان على والدتها وحدتها. وحين كان الجمهور يقبل على المسرح، ليتشاهد فتنة زمانها، لم يكن يشعر بأن الفنانة التي توزع الفرح والبهجة، وترف فوق المسرح، رفيف

الفراشة اللعوب، هي نفسها التي تقضي ساعات، في اثناء التنقل في القطار او الاستراحة في الفندق، في كآبة مفجعة، لا تتحدث خلالها الى احد، وتحدق الى الفراغ. حتى اذا حان موعد العمل، هبت الى المسرح وهي تردد: «**العمل... علينا ان نتابع عملنا**».

وبينما كانت ترقص على احد مسارح «**هافانا**» في **كوبا**، أغمي عليها ثلاث مرات خلال رقصة «**جيزيل**» الصعبة؛ وكانت تنتفض على اثر كل اغماءة، وتعود فتزاول الرقص بأسلوب اروع مما عرفه اي مشاهد. وبالطبع لم يشكّ احد في صحتها. وبذلك تذكرنا بالفنانة الكبيرة **سارة برنارد**، التي كانت تصاب بالاغماء في نهاية بعض المسرحيات، حتى اذا سمعت تصفيق الجمهور، قفزت كالنمرة، وعادت تواجهه بحيوية ومرح.

* * *

لم تعد **باڤلوڤا** الى وطنها. وكانت تلتقي مواطنيها في اثناء حفلاتها، إما في العواصم الاوروبية او في مدن الشرق الاقصى، فترقص لهم، لذكريات أيام انقضت، ولن ترجع. وينهال عليها دائما الطلب: نريد «**موت بجعة**»...

عام ١٩٣٠ بدأ **فكتور داندري** اعداد جولة جديدة في الولايات المتحدة... ولم يكن يدري انها ستكون الرحلة الوداعية. كانت **آنا** في الثامنة والاربعين من عمرها. وبرغم محافظتها على الحيوية والنشاط، الا انها، امام اصرار الطبيب تخلت عن بعض الرقصات الصعبة.

ويروي **فكتور** عنها: «**كانت تملك طاقة من الحدس شبه اسطورية، وخلال استراحتها في منزلها، في لندن، شعرت بانها لن**

تعيش طويلا،... وقد عبّرت عن حدسها ذاك في عدة مناسبات، منها مناسبة زيارة مدير اعمالها في بعض البلدان... واسمه سول هوروك. فحين غادرها، ليسافر، رافقته الى المرفأ حيث استقل الباخرة، وكانت تردد بين الجد والعبث؛ اشعر بأني لن اراه بعد اليوم»...

* * *

وكان شعورها في مكانه. فبعد بضعة اشهر، وفيما هي منتقلة من **فرنسا** الى **هولنده**، شعر مرافقوها بأنها ليست على ما يرام، فطلبوا اليها ان ترتاح فترة في **باريس**، لكنها رفضت، وبإصرار، ان تغير مخطط عملها. فهناك موعد ينتظرها في **لاهاي**... هناك جمهور موعود بمشاهدتها، ولن تخيبه... كانت تصر على ذلك مؤكدة أنَّ **«لا شيء يمكن ان يعيق باڤلوفا عن الرقص... جسدي يخضع لي، وانا لا اطيع جسدي»**.

ولكن الجسد تغلب هذه المرة؛ ففي اليوم التالي، استيقظت على ضيق في الصدر، يقرب من الاختناق. وقرر اطباؤها، في **لاهاي**، انها مصابة بالتهاب الشعب الهوائية في الرئتين. وارتفعت حرارتها الى درجة خطرة. وقضت اليومين التاليين في صراع مع الموت. ثم بدأ القلب يتعب، ويرسل اشارات الانذار.

تألمت كثيرا، انما لفترة قصيرة، سقطت بعدها في غيبوبة، ولم تعد تشعر بشيء.

وكان، الى جانب سريرها، **فكتور**، الصديق، ورفيق العمل. وخادمتها الامينة **مرغريت**. وفي منتصف ليل الثالث والعشرين من

كانون الثاني ١٩٣١، فتحت آنا عينيها، وتأملت من حولها ثم تمتمت: «**اني اموت. اعطوني دواء يخفف حدة ألمي**...». ثم عادت الى الغيبوبة، وكانت تهمس عبارة واحدة: «**مرغريت، اعدي ملابسي الخاصة بموت البجعة**»...

ولبضع لحظات، كانت يداها ترفان في الهواء، في حركات تعبيرية، هي بعض رموز رقصتها، ثم هدأ كل شيء.

* * *

بقايا رماد، من جناحي الفراشة، التي رفت في اجواء العالم، حتى ارهقها الرفيف، تستريح في مقبرة، ليست بعيدة عن بيت **آنا** في **لندن**. لقد اوصت، بأن تدفن في الحقول الخضراء، حيث كانت تحب ان تسير، كلما صحا الطقس. حجرة صغيرة تحتضن رماد **باقلوفا العظيمة**. والذي يزور المكان، يجد دائما ازهارا جميلة، يحملها زوار، يأتون من كل بقاع الارض، ليقدموا الاحترام والتقدير، لذكرى فنانة، كانت رائدة في تاريخ رقص الباليه.

- الموسوعة البريطانية.
- موسوعة غاكستون.
- كتاب باليه - سايمون وشوستر


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كارين بليكسن



«يجب أن نترك أثرنا في الحياة فيما نحن قادرون على ذلك».



خلال بحثي عن وجوه النساء الرائدات والمتفوقات، وقعت على هذه الحكاية الفريدة، والمتميزة، في أعمالها كما في سيرة حياتها.

جاءت من بلاد تحاذي القطب الشمالي، لتعيش ردحاً من صباها، في منطقة مجاورة خط الاستواء، في القارة الأفريقية، وكانت تلك النقلة، المنعطف الذي حدد توجهها.

وفي حياتها الموزعة بين عالمين، بين قارتين، عاشت غريبة في مزاجها كما في مسلكها. وقد جمعت في شخصها، المرأة الأرستقراطية ووارثة الألقاب والفنانة الغريبة الأطوار.

* * *

«يجب أن نترك أثرنا في الحياة، فيما نحن قادرون على ذلك، كي لا ننتهي، ونخرج، ولا ما يشير إلى عبورنا».

ومن أجل أن تحقق هذا القول، الوارد في بعض كتاباتها، ظلت المرأة تسعى، وتجتهد، وتقاوم كل العقبات التي اعترضت سبيلها، خصوصاً الآلام الصحية، التي لازمتها طوال حياتها.

ولدت **كارين بليكسن** في ١٧ نيسان من العام ١٨٨٥، في قصر العائلة، **رانغستلاند** في **الدانمارك**. أبوها النقيب **وليم دينيسن**، ينتمي إلى الطبقة البورجوازية، وكان سياسياً وأديباً، ووارثاً للقب **(بارون)** أحد الألقاب الشريفة في زمانه.

لكن هذا الأب، ولأسباب غامضة، توفي عام ١٨٩٥، أي حين كانت الطفلة في العاشرة من عمرها. وربما كان وراء موته فشل في مهمة أوكلت إليه..

المهم أن الأم، واسمها **أنغربروغ وستنهولز**، تولت تربية أولادها الخمسة، (ثلاث فتيات، وولدين) وكانوا في سن الطفولة. وقد عاونتها في هذه المهمة والدتها، وشقيقتها.

وترك موت الأب انطباعاً سيئاً على نفسية الطفلة، التي كانت أقرب الأولاد إليه، وقد أخذت عنه النزعة الأدبية، وحب المغامرة.

وسوف نرى كم كانت مكلفة مغامراتها، على الصعيدين الإِنساني والمالي.

* * *

من الطبيعي أن يسيطر المناخ الأرستقراطي - البورجوازي على أجواء القصر وتنشأ الفتاة على تلقي دروسها في الفن، والأدب، والموسيقى. وكان لقصر العائلة علاقات عريقة بالشخصيات الأدبية حتى أن القصصي الشهير **هانز كريستشين أندرسون**، كان يشارك، في بعض الحلقات الأدبية، ويروي لأولاد القصر، أي الأجيال التي سبقت **كارين**، قصصه الرائعة.

كذلك كان لميل الأب، إلى الكتابة، أثره في تكوين البنية الأساسية لشخصية الكاتبة. وقد بدأت مواهبها الفنية تظهر في مرحلة مبكرة جداً. وكانت تحلم بأن تصبح رسامة. وبالفعل توجهت في هذا الاتجاه، وتلقت دروساً في الأكاديمية الملكية، كما مالت شقيقتاها إلى الموسيقى والرسم والغناء.

لكن **كارين**، برغم تدربها في هذا المجال الفني، بدأت تكتب، ووجدت لذتها القصوى في كتابة القصة. ونشرت قصصاً أولى، في المجلات الصادرة، في تلك الحقبة، وتحت الاسم المستعار «**أوسيولا**».

لكن هذا كله ليس سوى الاشارات المبكرة التي تنطوي على شتى الاحتمالات. ذلك أن الكتابة المختمرة، الناضجة، هي ثمرة التجربة الشخصية، والمعركة التي يخوضها الإِنسان في مسيرته الحياتية، وكان على الكاتبة، أن تنتظر بضع سنوات كي تبلغ مدى النضج الفكري والأدبي.

* * *

أظهرت **كارين**، ومنذ تفتح وعيها، ثورة على نمط الحياة في القصر. ثارت على الأسلوب البورجوازي. وتاقت إلى يوم تنعتق فيه من تلك الارتباطات التي تقيد روحها، وخيالها الجامح. ومن الطبيعي، أن تحلم صبية، لها تلك المشاعر والأحاسيس، بالإِنسان الذي يكمل شخصيتها، ويستجيب لنداء العاطفة. وقد أحبت ابن عمها **البارون السويدي هانز فون بليكسن فينيكي**. لكن هذا الحب لم يبلغ غايته. والحبيب، الطيار، أفلت منها، وربما، لم يتجاوب مع حبها، فخطبت لشقيقه التوأم **برور** عام ١٩١٣ . وكانت تلك الخطبة، ومن ثم الزواج بعد سنة بابن العم، بطاقة الهرب من خيبة الحب الأول، ومن محيط العائلة. وهاجرت معه إلى **كينيا**، في القارة الأفريقية، حيث كان يملك مزرعة بن.

لم يطل بها الوقت، حتى اكتشفت خطأها، فالحب الضئيل،

والذي ظنته سيقوى مع مرور الزمن، لم يلبث أن تقلص، ثم تلاشى نهائياً، حين وقعت فريسة مرض، انتقل إليها من الزوج. وكان عليها أن تعيش بقية عمرها، وهي تعاني آلاماً جسدية، وحالات نفسية، هي بعض من أعراض مرضها.

* * *

لكنها وجدت في المزرعة، والعمل فيها، بعض العزاء، كما أن الحركة التي كانت تنشدها، وجدتها في أفريقيا، القارة الغامضة، ذات الأبعاد غير المحدودة، والتي غمرتها بالدفء والطمأنينة، اللذين افتقدتهما في حياتها الزوجية. وأصبح العمال، وكبيرهم **(فرح)** وعائلته، أسرتها الثانية، تهتم لهمومهم، وتكتشف عبرهم، بعض ما كانت تجهله عن هذا العالم الجديد، في مناخه، وجغرافيته، ومزاج سكانه.

كان لها بيتها الجميل، الذي حققت فيه حلمها، وجعلت بعض زواياه، ملاجئ لروحها الرقيقة، وحسها المرهف.

لقد أذهلتها الحياة الجديدة. وأيقظت وعيها تجربة الاختلاط بالسكان الأفريقيين، واكتشفت عندهم، التقاليد، والمواهب والمفاهيم التي لم تكن تخطر لها في بال، ولا عرفت ما يشبهها في بيئتها الشمالية، فدخلت في صميم الحياة القبلية، وأعجبتها أساليب عيشهم وانتقدت، بشدة، تدخل الرجل الأبيض في حياة الأفارقة، خصوصاً حين كان يأخذ وجه الغزو المنظم، فيطرد القبائل من مستوطناتهم ليحل مكانهم.

لقد أحبت الأفريقيين، وأحبوها. وكتبت، فيما بعد، بأنها، لو بقيت في المزرعة، ولم تعد إلى بلادها، لوفرت الكثير من الصراعات الدامية التي قامت بين الفريقين.

* * *

لكن حياتها الشخصية، كانت تشد على أعصابها، وقد رأت أنه لا بد لها من الانفصال عن الزوج الذي لم يعد يجمعها به أي رباط.

وهكذا تم الانفصال عام ١٩٢٥ .

وبقيت هي في المزرعة، بضع سنوات، شهدت خلالها انهيارها، وإفلاسها. وبرغم ذلك كانت تفضل العيش في **أفريقيا**. لكن الواقع جعل ذلك مستحيلاً، لذا حزمت حقائبها، وغمراً من كنوز التجارب والذكريات، وعادت إلى بلادها.

* * *

هناك فصل معترض، لا بد من تدوينه، وربما كان، أقسى وأمر تجربة إنسانية عرفتها الكاتبة. فإن المزرعة، القائمة في قلب البلد الأفريقي، تحولت، خلال مرحلة ازدهارها، إلى محطة للأصدقاء القادمين من القارة الأوروبية، اما للسياحة، أو للصيد. وكان من بين أصدقاء الغربة شاب نبيل من أسرة إنكليزية مرموقة، هو **دنيس فينش هاتون**. ابن دوق **ونتشيلسيا ونوتينغهام**. شاب وسيم، شجاع، وخريج جامعة **أوكسفورد**. عميق الثقافة، شغوف بالاكتشاف والمغامرة، لطيف، همه البحث عن الإنسان، والتراث، في أعماق البلد الجديد. وجدت فيه **كارين** الصديق الحقيقي، وشقيق الروح الذي يدرك أبعاد نفسها التواقة إلى الانعتاق والسمو.

وكانت تقرأ له باكورة حكاياتها، وتصغي جيداً إلى ملاحظاته، كما كانت ترافقه في طائرته الصغيرة، في رحلات يقوم بها فوق سهول **أفريقيا** وغاباتها الشاسعة.

وبفضل صداقته، استطاعت أن تتحمل الحياة المتوحدة الموحشة، وتخرج من الانهيار الاقتصادي الذي أصاب أعمالها إثر إفلاس مزرعتها، وعرضها للبيع بثمن هو دون قيمتها. ولكنها لم تتمكن من تقبل فكرة خسارته. وقد خرج ذات يوم ليقوم برحلة في طائرته - الفراشة - ولم يعد. وبدأت أيام حزنها الحقيقي والعميق.

فخسارته، كانت بالنسبة إليها، الخسارة المعنوية التي لا تعوض. وهكذا حزمت أمرها، عام ١٩٣١، وقررت العودة إلى **الدانمارك**، تاركة وراءها مرحلة من عمرها، هي فترة الجني واختزان الكنوز.

ولم تكن كنوزها ذهباً أو حجارة كريمة، بل قصصاً كرّستْ لها بقية العمر، وأذهلت بها القراء، ولفتت الانتباه، إلى أن كاتبة من نوع جديد، مختلف وذات تجربة شخصية فريدة، تقف وراء تلك القصص.

واختارت اسماً مستعاراً، وقعت به، لا القصص المنشورة في المجلات والصحف وحسب، بل كتبها، وهو اسم **إيزاك دنيسن**، والكلمة الأولى من الاسم معناها الضحكة... وكانت اختيارها لمواجهة الصعوبات.

* * *

عرفها النقاد الدانماركيون بلقب «**شهرزاد**» فهي مثل سميتها، في حكايات **ألف ليلة وليلة**، وهمها الأول الرواية.

ثم بالطبع، كان يروقها أن تجد الآذان الصاغية. وكانت تروي، من دون توقف، وأول ما نشرت «**سبع قصص قوطية**» وذلك عام ١٩٣٤ وقد كتبتها بالانكليزية، فأكسبتها شهرة عالمية.

ثم تثبتت شهرتها، واتسعت مع كتابها «**مزرعة افريقية**» وترجمته بنفسها إلى اللغة الانكليزية، جاعلة عنوانه، «**من أفريقيا**» ونشر عام ١٩٣٧ . وكل من قرأ ذلك الكتاب، بات يطمح إلى تحقيق حلم واحد، وهو زيارة تلك القارة الغامضة، والمتوهجة في كلماتها كواحدة من جواهرها النادرة: **أفريقيا**.

كتبت بعد تجربة شخصية، عن أناس حقيقيين، عايشتهم في مزرعتها. ورسمت وجوههم، بالريشة، كما بالكلمة. وكتبت عن مناخ أفريقيا، وعاداتها، وتقاليدها، وأساطيرها.

وعاشت، الأسطورة، في أعمالها الأدبية التالية، وتناغمت مع ما حفظت من أساطير شعبها وتراثها، فإذا قصصها تطلع حاملة نكهة خاصة، وشذا عطر هو من بعض أريج الغابات وأزهار الأدغال البكر.

بعد ذلك نشرت «**حكايات الشتاء**»، و «**المنتقمون الملائكة**» و«**حكايات أخيرة**» و «**سيرة قدرية**» و «**ظلال فوق الأعشاب**».

ويلاحظ قراؤها، أن قصصها تمزج السيرة التشخصية، بالأسطورة، بالابداع الخيالي، فالخط الفاصل بين هذه العوالم دقيق جداً.

وساعدتها ثقافتها الواسعة والعميقة، وفهمها للشعوب، واحترامها للقيم الإنسانية، حيثما كان... ومكنتها من إغناء قصصها. كما اجتمعت حولها نخبة من الأدباء والفنانين، والمعجبين بشخصيتها الساحرة، ومطاردتها للأسطورة، حتى تحولت هي نفسها، إلى أسطورة

من نمط خاص. وكان يروقها جداً أن تدهش من حولها، إن بحكاياتها، أو بشطحات الخيال، والغرابة. أحياناً كانت تروي الأسطورة وكأنها تعيش واقعاً لا شك فيه.

ويتلفت السامع، حوله، ليتأكد، هل هو حقاً في هذا العصر، أم أنه عاد معها إلى تلك الأزمنة البعيدة؟ ذلك أن سحرها في السرد، والاقناع، كان يطغى على كل اعتبار.

لم تكن طريق **كارين** ممهدة، منذ البدء. خصوصاً وأن بعض نقاد بلادها أساء فهم أعمالها، فكتب نقداً سلبياً، بقي أثره في نفسها، ولم تنسه، حتى بعدما ذاع صيتها، وكسبت شهرتها العالمية.

لكن فريقاً آخر من النقاد، قدر عمق أدبها، وفلسفتها، ونفى عنها تهمة القائلين بأن أعمالها سطحية.

ويظل السبب الحقيقي للموقف السلبي من النقاد، أن **كارين** تنتمي إلى الطبقة الأرستوقراطية وقد ظلت وفية لها، وحين تتناولها في قصصها، فإنها تكتب عنها بإيجابية، الأمر الذي لا يروق كثيراً للنقاد، وخصوصاً الرافضين من بينهم، وعلى الأخص، جيل الشباب.

كذلك ظلت محتفظة بلقبها (**البارونة**) وكان يروقها أن تنادى به، إن في المخاطبة الشفهية، أم في التراسل.

والغرابة ليست في ذلك، إنما في كونها تجمع في شخصيتها النقيضين، إذ إنها، كفنانة، صاحبة مزاج بوهيمي. حتى أن بعضهم أطلق عليها لقب «**البارونة الغجرية**».

وأول ما يتبادر إلى ذهن الدانماركيين، لدى ذكر اسمها، وجه المرأة الغريبة الأطوار، الساحرة، بمسلكها، الجريئة والمغامرة.

لكنها لم تبق كذلك مدى الحياة، إذ بدأت، في سنواتها الأخيرة، تتقبل الديمقراطية، بل وتسلك مسلك أهلها، إذ كانت لها تلك المقدرة على التكيف، والتجدد الدائم والانفتاح على الحداثة.

* * *

أشرت إلى المرض، الذي دخل جسم الأديبة، في مطلع الشباب، ولم يفارقها، بل كانت تشفى منه لفترة، ثم تعود إلى الضعف من جديد.

لكن المرض لم يتمكن من قهر إرادتها، ولا استطاع أن يلجم اندفاعها، ويعيق عطاءها الأدبي. كما بقيت لها روحها الساخرة، وشخصيتها المسرحية، إن في المظهر أو السلوك.

وكانت تطلق على نفسها ألقاباً لا تقل غرابة عن حكاياتها وقصصها. وبعض النقاد لقبها بـ «**زهرة الأوركيد**» و «**اللبوءة الدولية**».

* * *

بلغت شهرة **كارين** أوجها، في اعقاب الحرب العالمية الثانية. واعتبرها القراء الأوروبيون من زمرة الكتّاب الأجانب الذين كتبوا بالانكليزية، شأن **فلاديمير نابوكوف**.

وحين قامت بجولة ثقافية في **أميركا**، عام ١٩٥٩، ألقت سلسلة من المحاضرات، كسبت بها ود أعدائها التقليديين، أهل النظام الديمقراطي، وذلك من دون أن تتخلى عن شخصيتها، بل ورسالتها الأرستقراطية.

وخلال تلك الرحلة، اجتمعت إلى كبار الأدباء والفنانين. وكسبت

تقديرهم، ولكنها عادت من تلك الرحلة، منهكة صحياً. وبدأت العلة تتغلب عليها، فلم تعد تتمكن من الكتابة، بل اكتفت بعقد اللقاءات والندوات الفكرية والأدبية، في جناح من قصرها، قدمته الى الأكاديمية الدانماركية، عام ١٩٦٢، لهذه الغاية الثقافية. وكان ذلك آخر مأثرة لها، إذ وافتها المنية، في السابع من شهر أيلول، من ذلك العام...

وقد أوصت بأن «**تدفن في أرض تتحول إلى ملاذ للعصافير**».

- حياة وقدر كارين بليكسن - فرانز لاسون وكلارا سفندنسن
- صحيفة الأدب الدانماركي ١٩٨٢ .
- حقائق من الدانمارك ١٩٨٣ .

إديث سيتويل



«كلّنا عشنا وكتبنا في ظلّها...».



«سألتني احدى السيدات:

- **لماذا ترتدين الثياب السوداء؟ هل انت في حالة حداد؟..**

قلت لها:

- **نعم، انا في حداد يا سيدتي.**

سألت:

- **على من حدادك؟**

اجبت:

- **على العالم.**

ورد هذا الحوار القصير في مذكرات سيدة الشعر الانكليزي، الشاعرة التي خيم ظلها على العصر، وجعلها شعرها محور نقاش وجدل في حياتها وبعد الممات.

إديث سيتويل.

* * *

ولدت **اديث لويزا** في السابع من شهر ايلول، ١٨٨٧، في بلدة **سكاربورو** - مقاطعة **يوركشير** في **انكلترا**.

ابوها **جورج سيتويل**، وامها **اللايدي ايدا دنيسون**. وكلاهما متحدران من سلالة ارستوقراطية وهي الكبرى في العائلة، واحدى قواعد الثلاثية الادبية التي تتألف منها ومن اخويها: **أوزبرت**، وهو

شاعر ترك اثرا مهما في عصره واستمرت اعماله شهادات، على مرحلة توهج وازدهار فكري. **وساكفريل** الاخ الاصغر الذي اهتم بأدب النقد الجمالي والفني وتسجيل الرحلات. وقد لفت الثلاثة انظار العالم، بالشكل الذي يفرض نفسه:

«قامات فارعة، شعر اشقر، وعيون رمادية زرقاء، او رمادية خضراء...» وكأنهم يحملون من خلفيات تاريخ العائلة شهادات تشير الى الاصل النبيل».

وتبقى **اديث** الأُولى بين الثلاثة، ليس لكونها امرأة، بل بفضل الجديد الذي غرسته في لغة الشعر عامة. وهذا ما جعل اخاها **ساكفريل** يكتب، في من كتبوا، شهادة يقول فيها: «**كلنا عشنا، وكتبنا في ظلها..**» ومن بعده كتب الشاعر **ستيفن سبندر** مشيرا الى اهمية وجودها الشخصي والشعري وانسجام الناحيتين: «**أن شعرها وشخصيتها وحدة متكاملة**».

وبالطبع، كان هذا الشاعر، واحدا من المعجبين والمقدرين، والدائرين في فلكها.

نشأت **اديث** في بيت متجذر في التاريخ. وان لم يَحوِ منزلها البذخ والفخامة، انما بقي محافظا على آثار ارستوقراطية تصفها فتقول: **«بيت مظلم، ومنسي، وثمين، مثل كتاب بقي مقفلا ومنذ القرن السابع عشر. تشم في ثناياه رائحة الرطوبة والبعد. الاشجار في حدائقه جامدة وميتة، مثل مكتبة مهجورة.»**

في هذه الاجواء نشأت، تغرف العلم والفن من كتب تتكدس في زواياه، ولوحات تزين جدرانه. وبرغم كون العائلة فقيرة، فقد كانت

هناك مربية وخدم. والابنة الوحيدة درست على اساتذة خصوصيين. وشعرت، منذ البدء، بميل خاص الى الآداب والفنون. وقد اتقنت الموسيقى، وتعلمت مبادئ الرسم الى جانب اتقانها اللغة. والاثر الفني ظاهر في شعرها، فالانغام والالوان تتمازج في قصائدها، وتؤكد أنّ صاحبتها تعيش وسط التيار المتحرك في عصرها، برغم كون البيت الاول في الريف، لا في **لندن**، حيث انتقلت فيما بعد.

* * *

هذه الشخصية الغريبة، والمعقدة، التي ظهرت على المسرح العالمي، وجذبت اليها الاهتمام، لم تكن وريثة **العهد الفكتوري** (نسبة الى **الملكة فكتوريا**) بكل اقنعته وتزمته، وحسب، بل اكتسبت عقدا خاصة بها، من اجواء العائلة وتناقضات بيئتها. ولم تترك ذلك للباحثين، كي يحققوا فيه، او يخمنوا، بل سجلته في مذكرات، تسيل من بعض احرفها الدماء، وتنضح كلماتها بالحقد والألم. وقد نشرت تلك المذكرات بعد وفاتها، اذ تسجل حقيقة علاقتها بوالديها. وتصف طفولتها، وقسوة العيش مع ام، «**غضبها هو حقيقتها الوحيدة**» وأب «**يحضنني فقط ليأخذ صورة مع طفلته، ويبدو فيها ابا عطوفا**». و «**طفولتي.. ماذا اقول فيها؟ انها ملحمة بؤس ومرح**»... و «**اشعر بالشفقة على امي..**» هكذا تكتب بصراحة الى جانب شهادات في الشعر واصحابه.. وتكتب عن امها اكثر: «**صبية فقيرة، متحدرة من عائلة نبلاء. تزوجت ضد ارادتها بشاب لا يقل عنها تعاسة. ولم يكن الاثنان يعلمان شيئا عن حقائق الحياة. بعد انقضاء بضعة ايام على هذا الزواج، هربت امي، عائدة الى منزل والديها. لكن جدتي اعادتها... بعد تلك العبودية بتسعة اشهر،**

ولدت. وكانت امي في الثامنة عشرة من عمرها. ولم تكن تحمل لي في صدرها ذرة من الحب والعاطفة. ربيت في الكره. ثم تحولت هي، فيما بعد، وغفرت لي وجودي.. وهذه المرأة نفسها، كانت جميلة جدا، ايطالية المزاج، تشبه واحدة من لوحات الفنان ميكلانج».

* * *

لا نستطيع ان نرسم شخصية هذه الشاعرة من دون الرجوع الى سجلاتها؛ فقد وقفت من والديها موقفا صريحا، كردة فعل لتعاملهما معها، وهي النفس الحساسة، والروح المرهفة. وكلماتها، حين تذكرهما، تقطر ألما ومرارة. ولا غرابة في ذلك حين نطلع على العذاب الذي لقيته في فترة الطفولة، على الصعيدين النفسي والجسدي: فهي طفلة مرفوضة منبوذة. وهذه خطيئة لا يغفرها الولد لاهله مهما بلغ به النضج والتسامح: «**كنت خيبة لأبي. وكانت امي تفضل لو ان المولودة دمية تفتح عينيها وتغمضهما باشارة منها. وفي كل مرة تلفظ كلمة: ماما او بابا... باختصار اعترف بأن والدي كانا غريبين عني، ومنذ اللحظة الاولى لولادتي**».

ثم يأتي الالم الجسدي. واسبابه ان الوالدين الجاهلين لم يستطيعا تقبل الفتاة، ابنتهما، في شكلها الطبيعي: جسم سمين، ووجه مستدير كالقمر: «**وجه انسان يعلم سلفا، بكل مآسي الوجود..**» وذلك الوجه كان يخفي القلق الباكر لنفس شاعرة حساسة.. ولم يقبله الوالدان. انما احتضنته المربية العجوز «**صديقتي الاولى... اراها ظلا ابيض، وجبلا في آن واحد...**» وقد عانت الطفلة آلاما جسدية

بسبب اعوجاج في عمودها الفقري دفع والديها الى استدعاء طبيب تقليدي، بلا قلب، وضعها في قالب من حديد، الطريقة الوحيدة لديه، لتقويم الاعوجاج. ويمكننا ان نتصور اثر ذلك في نفسها، وقد وصفت الشاعرة قفصها، فيما بعد، بسحرية ومرارة، كما لم توفر الطبيب من سخريتها الحادة؛ فهو لم يكتف بتجميد جسمها بل تأمل انفها النافر الدقيق، وقرر انه يحتاج الى اصلاح كذلك، وبواسطة الطريقة نفسها، اي يوضع في قالب على قياسه. وبذلك قطع عليها انفاسها، وجعلها في حالة من الضيق والألم، يعجز عن تحملها الجبابرة.

وبحثت الطفلة عن مهرب، عن ملجأ. فوجدته لدى جدتيها، وخصوصا والدة ابيها، وكانت «**تحيط نفسها بعالم من الزهور، والحدائق تتدلى حولها، من كل مكان...**». لكن هذا التعويض وان زودها بشيء من التوازن النفسي، فانه ظل مقصرا عن محو الحقد من اعماقها، وازالة سوء الفهم المتواصل مع والديها، واستعدادها في كل لحظة للتحدي والنقد.

من جهة اخرى، ساعدها وجود اخوين قويين، على السيطرة على الوضع. خصوصا وانهما كانا يفهمانها بمحبة وعمق. ويعيشان في الاجواء نفسها. وهكذا قويت الصغيرة، وخرجت الى عالم الكبار، تاركة قفص السجن، رافضة ان تخرّ ضحية شخصين غير مستقرين، في العاطفة والمزاج.

وان ظاهرة الاخوة الثلاثة في الشعر والادب، تعيدنا الى واحدة مشابهة وسابقة لها في تاريخ الادب الانكليزي، واعني الاخوات **برونتي**.

وكان **اوزبرت** و**ساكفريل** اصغر من **اديث** سنا، ومعجبين بذكائها، وغزارة قلمها، مقدرين الاسلوب الجديد، الذي ادخلته على لغة الشعر والنثر، وحماستها للتجديد، وتشجيعه لدى الآخرين، شعراء كانوا ام فنانين. وقد وقف الاخوان معها، في كل خطواتها، الاولى الناشئة، والتالية الواثقة. وموقفهما هذا ظل سندها وحافزها على المضي الى ابعد مدى، بثقة وقوة واندفاع.

* * *

«**الام وقصائد اخرى**» كان اول ديوان يصدر للشاعرة وذلك عام ١٩١٥ . وبعد مرور سنة على هذا التاريخ، اصدرت، مع اخويها مجلة ادبية سمتها «**العجلات**» وكان توجهها الاول الى محاربة التقليدية المهيمنة على الشعر، والقيام بحملة تجديدية، تكون المجلة رائدتها. وقد تحقق لها ذلك بفضل الجهد الذي بذلته والسهر على تحقيق الهدف. وباتت «**العجلات**» ملتقى الاقلام، ومنبع الوحي للشعراء الشباب. واحتضنت **اديث** المواهب الجديدة، وشجعتها، بل كانت تبحث عنها، في محيط الشعر والفن على السواء. وقوي تأثير الشاعرة، وبدأ قلمها يسجل قفزات ناضجة، حتى اذا بلغ العشرينات، بدأ يعطي ثماره الناضجة. وقد تكرست **اديث** شاعرة مجددة في الثلاثينات. وكانت قد اصدرت خمس عشرة مجموعة شعرية، وعدة اعمال نقدية.

وبما ان شعرها موسيقي، فانه يقرأ بفخامة. ولذا اصبحت مركز اهتمام الندوات الشعرية. وفي العام ١٩٢٣ وضع الفنان **وليم والتون** موسيقى خاصة، رافقت الشاعرة في قراءتها. واضافت الى اعمالها

ومواقفها بُعداً آخر في الابتكار والتجديد. وكان ظهور **اديث** يحدث ضجة، لا لكونها شاعرة متفوقة وحسب، بل ولأنها طريفة الذوق والاختيار في ملابسها وتسريحة شعرها، واعتمادها الحلى اللافتة والقبعات الغريبة. ولم يَطغَ المظهر على خصوصيات تميز شعرها، ومنها دقة الملاحظة، رهافة الشعور وعمق الفكرة.

والشعر لديها، ليس كلمات، بقدر ما هو صور تتزاحم على المسرح المسموع والمنظور، وموسيقى عذبة، تنعش المشاعر، وتثير في النفس، حبا للحياة والفن. هذا الى افكار جديدة، كانت تنثرها ولا تبالي، او تطلقها صفعات حين تدعوها الحاجة الى الصفع. ومن حسن حظها، ان مرحلة نضجها الشعري، تلازمت مع فترة الهدوء والاستراحة بين حربين كونيتين. وهذا ما جعلها تتفرغ للفن، كلية، فترتاد المسارح، وتحضر المعارض الفنية، وتتقابل او تتراسل، مع كبار المفكرين. وتقرأ شعرها، او تنشره، واذا ضاقت بصخب المجتمع، تهرب الى منازل صديقات لها، في اوروبا، خصوصا في **باريس**، حيث كانت تخلد الى الراحة، والكتابة.

ومن بين الصديقات اللواتي التقت معهن في الميل الى التجديد الكاتبة **جرترود شتاين**. الا انها اخذت عليها نقل المختبر الى العامة.

وشتاين كانت مجددة في الشعر، الا انها كانت مبالغة الى اقصى الحدود. ولم تمنع الصداقة **اديث** من ابداء رأيها الصريح في أعمال زميلتها. وهي التي دعتها الى زيارتها، في لندن، وقدمتها الى حلقة الشعر فيها.

* * *

كرست الشاعرة حياتها كلها للأدب والشعر. ومع انها عرفت الحب مثل اي انسان طبيعي، لكنها لم تتزوج. وقد يكون موقفها الرافض لفكرة الزواج، ناتجا عن تلك العلاقة السلبية التي ربطت والديها برباط الفوارق والكره، لا التفاهم والحب. ووسعت الشاعرة آفاقها، فباتت اهتماماتها ابعد من حدود ذاتها؛ فهي القارئة المثقفة العميقة التجذر في الفكر والاحساس. وهي الانسانة، تمتد احاسيسها اللاقطة في كل الاتجاهات، لتسجل نبض الألم في عصرها: «**لا عيون تبكي حزنا / لم تبق فيها دموع / عميت مثل السنين**»...

والميزات التي رافقتها، منذ خطواتها الاولى هي ميلها الى المرح والسخرية مهما تأزمت الاوضاع، وتأكيدها شخصية الانثى في كيانها، مظهرا وجوهرا.

* * *

نعم، أثارت **اديث** ضجة كبرى حولها، بسبب مظهرها الغريب، واسلوبها المتطرف في اختيار الازياء وادوات الزينة. وكانت تفرح بالنقد اذا وجه اليها، لأي سبب كان؛ فهي تحب العراك، ولا تتعب من اثارة الغبار. وقد خاضت معارك قلمية، في كل مراحل حياتها. بعض تلك المعارك، كان شعريا كلاميا، وبعضها اجتماعيا. وكانت في معظم الاوقات، تخرج منتصرة ولا تهتم للآراء المعارضة.

* * *

لا بد من وقفة عند المظهر الخارجي من شخصية الشاعرة، خصوصا وانها تعكس ذاتيتها: فهي مسرحية الذوق والمزاج، وكانت ترتدي ثيابها في ضوء هذا المفهوم، كذلك زينة الوجه والشعر. ومتى

اطلعنا على غرابة افكارها، وصورها الشعرية، نجد ان هناك انسجاما تاما في شخصيتها، يطابق قول الشاعر فيها: «**ان شعرها وشخصها واحد**».

ولم تكن تكتفي بارتداء الازياء الغربية، بل تدعو المصورين ليلتقطوا لها صورا تسجل الزي. وافضل مثال على ذلك صورة اخذت لها في حلة شرقية، وفوق جسمها باقات من الزهور ومن حولها تماثيل لملائكة تحرسها. تلك الصورة تذكر بصورة اخرى للممثلة المسرحية **سارة برنار**، التي شاءت ان تتعود منظرها في تلك اللحظة الاخيرة، ام انها كانت تداعب الموت؟...

وقد اثارت الشاعرة الرأي العام، عندما زارت **اميركا**، وكانت تتجول في ثياب تعيدها الى العصور الغابرة، وتظهرها ملكة من التاريخ. وفعلت ذلك خصوصا حين كانت تشرف على مخطوط لفيلم من رواية لها عن الملكة **اليزابيت** الاولى. وكانت ازياؤها، تنافس ما اختارته الممثلة لدور البطولة: الثوب، والتاج والحلى. وقد اكتسبت بفضل هذا المظهر الغريب لقب «**الملكة**».

* * *

والمظهر الخارجي لم يلفت عامة الناس فقط، بل جذب اليها المصورين، والرسامين الذين راحوا يتنافسون ليسجلوا لوحات من وحيها. وحظيت بأكبر عدد من اللوحات بريشة اشهر الفنانين. اما الفنان الذي «**لم يتعب لحظة او يمل**» من رسم وجهها فهو الرسام الروسي **بافيل تشيليتشيف**. وقد ساعدته في البدء إذ عرفته على المجتمع اللندني، ومهدت له السبيل ليقيم معارضه. وهو من بين الذين

حظوا بعاطفتها ومحبتها، وبادلها الحب. بل كان الحب الاكبر في حياتها. لكن الصداقة الفكرية التي امتدت حتى لحظاتها الاخيرة، كانت مع الشاعر **دايلان توماس**. ونقل الكاتب **وليم كارلوس وليم** حديثا دار بينه وبين العاشق الفنان، وصفها فيه بقوله: «**رسمتها مرات عديدة. انها تختلف عن شعرها. هي جميلة، وحيدة، ايجابية. عاطفية وجدية. وهي تبدو باردة كلوح من جليد. لكنها ليست كذلك اطلاقا**».

* * *

اما فترة السلام التي اخصبت عطاء الشعراء والفنانين، فلم تدم طويلا، اذ سرعان ما تكاثفت غيوم الحرب العالمية الثانية؛ وشهدت الشاعرة كيف يذهب ملايين الشباب الى الحرب «**ليقتل واحدهم الآخر**». وكانت رافضة منطق الحرب، ولم تَرَ فيها سوى عملية قتل متبادل بين الأطراف. وهذه التجربة جعلتها أوسع افقاً، واشد غضباً. واكتسب شعرها ابعادا جديدة في العمق والشفافية. كما ازدادت معارضتها الشرسة للحروب: «**لن يستطيع انسان في الكون ان يقنعني بأن الحرب خير وحكمة، او ان هناك ما يبرر إرسال الملايين من الشباب ليقتل واحدهم الآخر**». وكان اخوها **اوزبرت** بين اولئك الشباب الذين استدعوا الى ساحة القتال. كذلك ذهب ضحية الحرب شاعر رعت خطاه الأولى ولم يشهد ثمار عطائه. انه الشاعر **ولفرد اوين**. وبين رسائلها مجموعة تبادلتها مع والدة هذا الشاعر، وفيها تبدي عاطفة ورقة نحو الأم الثكلى.

وفيما كانت تكتب في السابق للحب، للسخرية او للغناء

و«سأبحث من جديد / عن القصر في الغاب / حيث لن توقظ زقزقة عصفور / دمنا الراقد»... / و «مضى الليل / وفي عالم الاشجار / طلع الفجر / يجر صوته وصداه / كحفيف الاوراق فوق الغصون»... و «تذكّر... فقط تذكّر / من حبنا البائس / من الآن وحتى آخر الزمان / لن تلتقي نيران القلب والعقل»...

وبعد مرحلة الفن والمرح خيّم الحزن وغلفت شعرها غمامة قاتمة: **«كيف سأحلم / بأن استيقظ / وأكون وحيدة / في فراغ نعش / لعظام حزينة»... وعن حزن الآخرين: «هكذا تكلم الرجال / ثم جاء النعاس / أبرد من الورد / مزدهرا في الهجر»... و «لا احد يعلم... / الآخرة للغبار / والروح وحدها / تحيا من بعدُ»...**

* * *

لكن الشعر يبقى الواحة والملجأ: وانغمست فيه الشاعرة، وكتبت بأسلوب ميّزها، ويصعب على الآخرين تقليده، كما انها لم تقلد فيه احدا من قبل. وانصرفت الى دراسة شعراء لغتها، فوضعت كتابا عن **شكسبير** وآخر عن **سويفت**. وأخرجت الملكة **اليزابيت** الاولى من ثنايا التاريخ، وكتبت رواية عن حياتها وشخصيتها. وهذا الاثر الروائي حملها الى **هوليوود**، حيث عاشت فترة، اشرفت خلالها على اعداد مخطوطة الفيلم ثم تصويره. وكان ذلك عام ١٩٥٣ . أي بعد انقضاء سبع سنوات على نشر الكتاب، وبعدما حظيت بشهرة عالمية، وبات في امكانها ان تفرض شخصيتها، بكل غرابتها؛ وحتى اللباس الاليزابيثي، والتاج الغريب، والحلى المضخمة. وكانت تظهر فيها، في مناسبات شتى؛ ومن وحي هذا التصرف لقبوها «**الملكة**». ولم تعتبر

ذلك سخرية، اذ كانت ترى نفسها ملكة الشعر بكل استحقاق وجدارة. وحين رجعت الى لندن مُنحت لقب **ليدي** وهي صفة تقديرية من البلاط الملكي. كما حظيت بتقدير آكاديمي من أربع جامعات منحتها لقب دكتوراه فخرية.

* * *

ويبقى انتاجها الابداعي المصدر الاول لتكريمها وتقديرها. فقد تركت ما يزيد على الثلاثين مجموعة شعرية، وخمسة عشر مؤلفا في النثر، تختلف بين الرواية، والدراسة النقدية، والاسطورة، وقصص الاطفال والرسائل والمذكرات، وقد نُشرت بعد وفاتها. اما الرسائل المتبادلة مع الفنان الروسي «**الذي لم يمل من رسم وجهها**» فلم تنشر حتى الآن. وقد اودعتها جامعة **يال**، وأوصت بأن تبقى مختومة حتى سنة ٢٠٠٠ . لم تترك **اديث** موضوعا من المواضيع المطروحة في زمانها الا وغمست فيه قلمها. واضافة الى كونها شاعرة غزيرة، فقد كانت قارئة نهمة، وسيدة عميقة الثقافة، حادة الذكاء. ومن بعض قدرها انها جاءت في نهايات عصر الارستوقراطية، وسجلت شهادات على انهياره. كما ادركت فترة استراحة بين حربين جعلتها تقدر نعمة السلام قبل ان تعيش آلام الحرب.

لكن النجاح لم يمنحها الرضى النهائي والاكتفاء الروحي. فلا شيء يبقى على حاله. وظل ظمأ غريب يدفعها الى المزيد من التساؤل والبحث. حتى قادها، في المرحلة الاخيرة من حياتها، الى أن تنشد منابع الايمان: «**الآخرة للغبار / والروح وحدها / تحيا من بعد...**».

* * *

والسيدة التي كانت تفاخر بأصلها، وبأن جدها الاول كان رجلا عصاميا، توصّل بفضل جهده الى بلوغ مرتبة النبلاء في زمانه، لم تدع مناسبة تمر من دون ان تنقد الزيف الاجتماعي والرياء «**حيث تنحر الضحايا على اعتاب الشهوات**». وانتقدت بقسوة «**الاغنياء البشعين الذين يسمنون من لحم الفقراء**». ولا تزال قصائدها حية، نابضة، ولم يفقدها مرور الزمن معانيها؛ ذلك انها وليدة الصدق والتجربة الذاتية؛ يمثلها شطر من قصيدة لها: «**قرع طبول الزمن المقنّع / صدى لوقع خطى لا تأتي**»...

* * *

تابعت **اديث** كتابة الشعر حتى النهاية. وفي اواخر ايامها، وحين اضطرها الوهن والمرض الى أن تتحرك في كرسي نقال، استمرت في كتابة النثر. ووضعت مذكراتها، كما تابعت اتصالها بالعالم الخارجي، بالاصدقاء والشعراء والفنانين، عبر رسائل تحمل توهج فكرها وصلابة مواقفها. ورسائلها ليست شخصية بقدر ما هي مطالعات في كتاب الزمن، وآراء في تحرك التيارات الفكرية، وقد نثرتها حسب المناسبات والاشخاص، وهي تشبه مرايا انيقة، تعكس شفافية اسلوبها وعمق تأملاتها.

* * *

في التاسع من شهر تشرين الاول عام ١٩٦٢، وكانت الشاعرة قد بلغت الخامسة والسبعين من عمرها، تنادى اصدقاؤها، الى تكريمها، كما مُنحت جائزة **غينيس**. وكتبت الصحافة وصفا مفصلا للاحتفال، وبالغت في ذلك مما دفع **اديث** الى التعليق بسخرية: «**تكاد**

الصحافة ان تجن لاجتراحي المعجزة وبلوغي الخامسة والسبعين من عمري... وباتت الآن تترقب بشوق، يوم وفاتي»... ولم تكن غيبة ليفوتها معنى التكريم الذي دعته «**حفل وداعي**». وخلال الاحتفال، قرأت قصائدها من الكرسي المتنقل؛ وارتدت للمناسبة ثوبا مسرحيا يكنس الارض، صُنع من قماش القطيفة الحمراء، تعلوه قبة ذهبية تنسجم مع الحذاء المذهب. انما فخامة اللباس لم تقوَ على اخفاء وهن الجسد الناحل، وقد عادت اليه شفافية الطفولة. في ذلك الجو المفعم بالأبهة والجلال، قرأت الشاعرة، لجمهور يقارب الثلاثة آلاف شخص. وتحول كرسيها الى عرش حقيقي، يتربع فوقه الشعر:

«أين ثوبي الأبيض / المصنوع من قطيفة بيضاء / لجسد يدعوه بعضهم سماء / والبعض الآخر خطيئة...»

وقرأت مقاطع من قصيدة «**أقاليم الظلام والنور**» وكانت في قرارة نفسها تشعر بأن النور ينحسر، مخلّفا مكانه لجناح الليل، الذي دخلته في التاسع من كانون الاول عام ١٩٦٤ . وكانت وفاتها في لندن.

وهكذا اصبح الكيان صدى ترجعه كلماتها، وتهز له السرير:

«والآن اصبح جسدي / المدى اللامحدود للصقيع»...

- الموسوعة البريطانية:
- مؤلفاتها.

مذكراتها الشخصية: الصادرة سنة ١٩٦٥ .

غابرييلا ميسترال



«حتى معصرة الموت، لن تستطيع أن تجفف قلبي».



يطلع وجهها من بين حقول **التشيلي** مخضباً بالشمس الاستوائية، مغمساً بحلاوة القصب السكري وحليب جوز الهند، معطراً بنكهة الكاكاو والخبز الطازج...

غابرييلا ميسترال، الاسم قصيدة، وحياتها كانت قصائد متلاحمة مترابطة، وشعرها يغني الإنسان في مجده، وفقره، في عزه وانكساره.

تغني بلادها والإنسان فيها لتعبر، من خلال الأغنية، إلى الآخرين، تقاسمهم المحبة والزاد وشركة الحياة.

* * *

إبنة التشيلي **غابرييلا**. ولدت في السابع من شهر نيسان، عام ١٨٨٩، في **فيكونا**، وهو واد يقع شمال **التشيلي**. أبوها **جيرنيمو فيلانويفا**، كان شاعراً بوهيمياً، عمل فترة في التعليم الابتدائي، ثم لم يلبث أن هجر العائلة، مثلما كانت عادة الرجال في تلك المنطقة.

وقد رجع من الهجرة الأولى، إلا أنه لم يلبث أن عاود الرحيل، ولم يرجع، تاركاً زوجته **بترونيلا الكاياغادي مولينا**، وإبنتها **إميلينا** (من زواج سابق) والطفلة **لوسيلا**.

أجل، هذا هو الاسم الذي أطلقته العائلة الفقيرة على المولودة، ملحقة الاسم بأحد أسماء الأب (**غودوي**) وأحد أسماء الأم (**الكاياغا**).

وظلت الشاعرة فترة الطفولة والمراهقة ثم مطلع الشباب تعرف باسمها الأصلي: **لوسيلا غودوي الكاياغا**. وبقيت لها من أبيها قصيدة شعبية نظمها في لحظة انتشاء وفرح بقدومها.

* * *

عرفت **لوسيلا** حياة البؤس مع أمها وأختها، المدرّستين في أحد المعاهد الابتدائية النائية، وكانت أمها تجرها معها إلى المدرسة، آملة أن تتفتح مواهب الفتاة، ذات العينين الخضراوين، والبشرة البرونزية، والشعر الكستنائي الجميل. لكن شيئاً من النباهة لم يظهر عليها، مما دفع المعلمات الى أن ينصحن الأم بإبقائها في البيت لتتعلم شؤون الطبخ والتنظيف والخياطة.

لكن الأم بقيت مصرة على أن ابنتها غير ما يراها الآخرون، وانكبت مع **املينا** على تدريسها، والطفلة في عالم آخر، فما تكاد تدخل غرفة الصف، حتى تنخطف إلى عالم غير مرئي، تسرح فيه، ذاهلة عن كل ما حولها.

ولم يذهب جهد الأخت والأم سدى، إذ توصلت **لوسيلا** إلى إنهاء المرحلة الابتدائية، ثم تدرجت لتتابع الدراسة الثانوية. ولكن الحادث الذي حصل لها في هذه المرحلة، ترك بصماته على شخصيتها إلى آخر يوم من حياتها.

فقد كانت تساعد مديرة المعهد الكفيفة النظر، وتخدمها، وفي يوم كلفتها المديرة بتوزيع دفاتر على الطالبات. ويبدو انها لم تلتزم بعدد الدفاتر، وتناولت كل ما كان في الخزانة، ووزعته. وكان يفوق عدد الطالبات. مما دفع الإِدارة إلى تأنيبها بل واتهامها بالسرقة...

حزنت **لوسيلا** حزناً شديداً فطوت جناحيها على الحزن، وخرجت من المدرسة. وبينما هي في الطريق إلى البيت، فاجأتها الطالبات برشقها بالحجارة، ونعتها بالنعوت المحقرة.

وبسبب ذلك، اعتزلت في البيت، تدرس على نفسها، إلى أن صار في وسْعها أن تتقدم لامتحان دار المعلمات. وبالفعل تقدمت، ونجحت، وكان لها من العمر سبع عشرة سنة. ثم بدأت تكتب، وتنشر قصائدها في الصحف المحلية وكانت، خلال تلك الفترة، معجبة كثيراً بالشاعر الكولومبي **فارغاس فيلا**. ولم تبق الإِعجاب سراً، بل راحت تتحدث عنه، مما أثار سخط الهيئة التعليمية الرسمية، التي كانت ترى فيه شخصاً غير مرغوب فيه سياسياً.

مرة أخرى، وجدت **لوسيلا** نفسها خارج المدرسة، ثم في عزلة بائسة في قرية ريفية، حيث درست سنتين، إلى أن ابتسم لها الحظ من جديد، فانتقلت لتدرِّس في بلدة **سيرينا**.

هذه النقلة الهامة، كانت خطوة جديدة بالنسبة إلى الشاعرة. فإن المحيط ساعدها على توسيع أفقها الشعري، كما أن حبها للتعليم، بدأ يتجلى في الأسلوب المميز الذي اختارته.

* * *

لكن القدر كان يخبئ لها مفاحأة أخرى. ففي أحد الأيام، أرسلتها مديرة المدرسة إلى محطة السكة لقضاء حاجة. وهناك التقت أحد سائقي القطار واسمه **روميليو أوريتا**. كان شاباً غريب الشخصية، رث الثياب، ويتفجر حيوية. وأحبته.

ومع أنها اعترفت فيما بعد، بأن الرجل الذي أحبته لم يكن من

مستواها الفكري والروحي، إلا أن سلطان الحب كان مسيطراً على عاطفتها. وقد رفضت أمها هذا الشاب رفضاً قاطعاً. كذلك أحست الشاعرة والمربية، بأن العلاقة لن تكون متكافئة، فابتعدت عنه، بعدما دام حبهما سنتين..

وبعض كتّاب سيرتها يقولون، إن تلك العلاقة دامت خمس سنوات. على كل حال، لقد انتهت بالفشل، وسار كل في طريقه، أو هكذا بدت الأمور في الظاهر، وقبل أن يعثر على **روميليو** جثة هامدة. فإنه لم يستطع أن يحتمل قسوة الهجر، وعثروا في جيبه على رسالة بخط **لوسيلا**. لكن فريقاً آخر، من كتّاب سيرتها، يعتقد أن موت الشاب كان بعد مرور سنتين على انتهاء العلاقة، ولم يكن بسبب الشاعرة.

إنما القصائد التي بدأت تتدفق من قريحة **غابرييلا ميسترال** حاملة الحزن، ومرارة الخيبة، تؤكد أن الشاعرة لم تنس. وقد اختارت لنفسها هذا الاسم الجديد، لتكون لها حرية الكتابة، وكأنها تتحدث من خلف قناع.

كانت خلال تلك المرحلة معجبة بشاعرين هما: **فريدريك ميسترال** الفرنسي، **وغابرييل دانونزيو** الايطالي، ونحتت اسمها المستعار من اسميهما. كما أن رواية أخرى تقول: انها اختارت إسم **جبريل**، الملاك الحامل البشائر الطيبة، **وميسترال**، الرياح الحارة العتية التي تهب على بلادها، مما جعل البعض يدعوها: **صاحبة الاسم الملائكي والكنية الرهيبة**.

* * *

ومهما كانت أسباب التسمية، فإن حاملة الاسم هي مدار الكلام، وهي الذات المتفجرة بكل العواطف المتأججة، التي أودعتها في صدرها التجارب، والمناخ العام، وأصلها الجامح نحو البوهيمية، بفضل دماء هندية تجري في عروقها، وتمتزج مع دماء أخرى حارة ورثتها عن جدود قدموا من منطقة **الباسك الاسباني**. يقابل هذا إرشاد روحي تحدر إليها من جدة لها متصوفة، غرست تلك البذرة السامية في نفس الحفيدة فأينعت، وأعطت ثماراً خيرة في قصائدها، التي تحمل أسمى ما في المشاعر الإنسانية من حس، ومحبة وحنان.

ثمة ميزة جديرة بالاهتمام، وهي الموسيقى الجارية في شعر **غابرييلا**، والتي يرجع مصدرها إلى تربيتها في حضن أم تملك الحس الفني، ورهافة الذوق، وحب الموسيقى، مما جعل الشاعرة تكتب قصائدها وكأنها تعدها للإنشاد قبل القراءة.

* * *

أما الطبيعة، والتي لها في شعرها حضور لافت، فهي طبيعة قريتها، والوادي الحبيب الذي عاشت في أحضانه (**وادي الكي**) واسمه يتردد في كثير من قصائدها. وحتى بعدما بعدت عنه، وطافت في العالم، ظلت جمالاته البكر تحيا في ذاتها إلى جانب الصور التي جنتها من جلسات التأمل الهادئة، على كتف الوادي، تراقب الغيوم الراحلة، ونجوم الليالي الصافية، وتتحدث إلى الطيور والفراشات.

ظل هذا العالم الحميم عالمها، كما بقي مجرى نهره يجاور مجاري الدم في جسدها حتى آخر يوم من عمرها.

* * *

وغابريلا التي رحلت في العالم، تغرس قصائدها، عند حدوده البعيدة، حملت تلك القصائد من مقلع أصيل، هو صلة وصلها مع بيئتها، مع شعبها، والتقاليد والعادات المتجذرة في حياته، وقد وجدت في القصص الشعبية التي تنقلها إليها أمها وجدتها، أو التي تسمعها من عابر سبيل، وجدت فيها ذخراً يزداد غنى، كلما ازدادت تعمقاً في فهم الحياة ووجود الإِنسان.

لذا كان من الطبيعي أن يدور شعرها على الإِنسان، بدءاً بمأساتها الشخصية، والتي كانت ثمرتها ديوانها الأول «**الهجر**» وقد أهدته «**الى ذكرى موته المأساوي**».

* * *

هذا الديوان يقع في أربعة فصول هامة تتحدث عن: الحياة، المدرسة، الأطفال والطبيعة. وله قصة طريفة، إذ قام بجمعه **فيديريكو دي أونيس** أستاذ الأدب الإِنساني في جامعة **كولومبيا**، وذلك بالتعاون مع إدارة الجامعة والطلاب، على إثر إلقائه محاضرات عن أهمية هذه الشاعرة.

ومع انتشار الديوان الأول، عرف شعرها في الأميركيتين، وخصوصاً في البلدان الناطقة باللغة الاسبانية، وباتت الصبية الصغيرة ذات شهرة واسعة. وكانت لا تزال مدرّسة، وتقيم في مسكن المعلمات، حين بدأ يلتف حولها المعجبون بشعرها من أدباء وفنانين، فيعقدون معها الندوات.

وبدأت تنسى الحزن والألم، وتنتشي بنفحات الشعر، وأغلب الظن، أنها في تلك المرحلة، التقت الشاعر التشيلي الذي أحبته وظنت

أنه بادلها الحب، لكنها استيقظت ذات يوم لتكتشف أن الشاعر تخلى عنها، وتزوج فتاة أرستقراطية ثرية، وطعنها بذلك مرتين: مرة في حبها، ومرة في كرامتها.

كانت هذه خيبتها الثانية، وتجربتها الخاسرة مع الحب والإنسان. وقد فجرت اعماقها بالشعر البهي، والذي منه: «**باعني الذي خطف ذات يوم حلماً من عيني. أهديته قصائدي ووجهي المخضب بالدم**».

كما كتبت أيضاً:

«**حتى معصرة الموت، لن تستطيع أن تجفف قلبي**».

* * *

وراح قلبها ينزف الشعر. ولم تَنْسَ الأطفال الذين تتفاعل معهم عبر حياتها التربوية، فكتبت لهم قصائد يغنونها، فتملأ حياتهم فرحاً وغبطة.

ثم نشرت ديوانها الثاني «**حنان**» وفيه شعر طفولي، وتعبير عن حياتها وتجاربها الإنسانية، ثم مفهوم حب الأم لأولادها.

وقد انقضت ست عشرة سنة، بين طبع ديوانها الأول، والثالث وعنوانه «**تالا**» وأهدته إلى الأطفال المهجرين في مقاطعات **الباسك وكاتالونيا** وغيرها من المناطق الاسبانية.

وصدر لها مجموعة مختارات شعرية، قبل أن تنشر ديوانها الأخير، والذي تفصل بينه وبين «**تالا**» ست عشرة سنة. اسم هذا الديوان «**لاغار**» أو «**المعصرة**» وكانت قد تأثرت بحربين عالميتين، إلى الحرب الأهلية في **اسبانيا**، وسائر الحروب والحرائق المشتعلة في العالم، والتي تخلف آثارها يأساً ورماداً في نفوس الشعراء.

لكن الفترات التي انقضت بين صدور ديوان وآخر، لم تكن فارغة، إذ عمدتْ الشاعرة الى نشر قصائدها، في معظم المجلات والصحف الناطقة بالاسبانية، كما كتبت نثراً جميلاً، إنما عرف عنها عدم اهتمامها بجمع وحفظ ما كتبت. وأبقتْ ذلك لدارسيها، والمهتمين بشعرها من بعدها.

* * *

يدهشنا أن نقرأ أن المرأة التي واجهت الأزمات وتغلبت على الصعاب، كانت خجولة، منطوية على نفسها. وحتى عندما نجحت في مباراة شعرية وطنية، عام سنة ١٩١٤، حضرت حفلة توزيع الجوائز، متخفية، ونالت الجائزة الأولى، ولم تلب النداء لتقف فوق المنبر، وتلقي قصيدتها، حتى ظنّوها غائبة، فألقيت نيابة عنها.

لكن خط القدر المرسوم لها ظل متابعاً مساره، كما ساهمت عناصر عديدة في دفعها إلى ذروة النجاح. فقد كانت في طراوة العود حين أصدر **غوسمان ماتورانا** كتاباً مدرسياً، تحدث فيه عن نبوغها، وأرسى قواعد شهرتها.

* * *

وقد انعكست شهرتها الشعرية على مركزها التربوي، فرقيت إلى مديرة معهد في الريف، ثم نقلت إلى المدينة.

وذات يوم، وصلتها دعوة من وزير التربية في **المكسيك** يطلب منها أن تقوم بزيارة بلاده، وتشارك في إصلاح النظام التربوي فيها.

ووضعت حكومة **المكسيك**، في تصرفها، دارة أنيقة في الريف، وسيارة، ومرافقة. كما شيدت مدرسة على اسمها، وأحيطت بكل احترام وتقدير، مما جعلها تكتب إلى أحد الأصدقاء تقول: «**لأول مرة أجد المكان الذي حلمت به، حيث أنعم بالهدوء، بعيداً عن المتاعب المالية**».

وحين انتهت مهمتها، وغادرت **المكسيك**، كان في وداعها أربعة آلاف طفل، يعنون لها أناشيدها العذبة.

* * *

كانت لهذه الشاعرة، نزعة أمومة قوية، لم تعط فرصة تغذيتها، فحولتها إلى أطفال الآخرين. كذلك اهتمت بتربية ابن شقيقها **خوان غودوي** ورعته وأحبته كأنه ابنها، وكانت فخورة به، تطلق عليه الأسماء الرائعة، فتناديه: «**صنوبر حلب، وأرز لبنان**».

لكن القدر الذي كان لها بالمرصاد، انتزع منها هذا الحب أيضاً، فبينما كانت تقوم برحلة إلى البرازيل عام ١٩٤٣ بلغها نبأ وفاته.

وهكذا انطفأ أملها الأخير. وكانت في مرحلة من العمر صعبة، فلم تستطع أن تتحمل المأساة، وبدأت صحتها تنهار، تحت تأثير الخسارة.

* * *

هناك جانب هام من حياة الشاعرة، ساهم في انتشار شعرها كما فتح الباب في وجهها لتعبر إلى العالم، من دون أن تقيدها الحدود الجغرافية. ففي العام ١٩٢٨ أعفتها حكومة بلادها من مهمة التدريس، وخصتها براتب يدوم مدى الحياة، وذلك حين شعر المسؤولون أن في استطاعتها أن تؤدي لوطنها، خدمات كبيرة في

الخارج. وقد مثلت **التشيلي** في اللجنة الثقافية في عصبة الأمم. ثم عينت من بعد قنصلاً فخرياً، ثم قنصلاً في عدد من البلدان الأوروبية. وكانت أول امرأة تشيلية تحتل هذا المنصب، وهذه المكاسب جاءتها ثمرة نضال مستمر، وإخلاص لعملها، ولنفسها وأفكارها. كانت تقف بشجاعة إلى جانب الحق ضد الباطل، واختارت الإنسان، أينما كان، مركز اهتمامها، خصوصاً ذلك الإنسان الضعيف والمغلوب على أمره.

* * *

وغابرييلا صاحبة نظرة شمولية إذ اعتبرت القارة الأميركية وحدة لا يجوز أن تفرق اهلها الحدود السياسية، ومن هنا نظرت إلى الإنسانية كأنها أسرة واحدة، فرفضت التمييز بكل وجوهه، فالإنسان يقدر بقيمته وكيانه الإنساني، لا بعرقه أو طبقته. وكان هذا الموقف المميز من جملة الأسباب التي دفعت لجنة جائزة نوبل الى ان تختارها وتمنحها تلك الجائزة عام ١٩٤٥ .

* * *

هذه الشاعرة لا تخص بلادها، فالدماء الغجرية الموروثة عن أبيها، جعلتها تعيش في قلق دائم، وبحث متواصل عن الحقيقة. ومثلما غرست اسمها في حقل التربية والتعليم، وشعر الطفولة، والقصائد الإنسانية الدافئة، كذلك عرفها العالم في وجهها الآخر، الحامل أبهى صورة عن المرأة.

وبرغم الانهيارات والنكسات كلها، ظلت أشبه بسفارة متنقلة راقية. تدعى من جامعة إلى جامعة لإلقاء الشعر، ومناقشة شؤونه.

ومنحت أكثر من لقب دكتوراه فخرية. كما حاضرت في الأدب الاسباني في جامعة **بورتوريكو**، ومنحت لقب مواطنة شرف فيها.

آلامها الشخصية، بقيت من خصوصياتها. عالمها الداخلي ظل مقفلاً، وقلما سمحت لأحد بتخطي عتبته، حتى مرافقتها **دوريس دانا** لم تستطع أن تلج بوابة ذلك العالم... وظلت **غابرييلا** تبدو في جلساتها، المرأة الهادئة، المنطوية قليلاً على ذاتها، وكأنها تتحدث إلى كيان لا يبصره الآخرون.

أما إيمانها بوحدة أميركا - الشمالية والجنوبية، فلم يكن بدافع عاطفي، بقدر ما يجسد فلسفتها الإنسانية، وتوقها الى ان ترى الناس يعيشون بمحبة وسلام. لذلك لم يكن مستغرباً أن ينتخبها «**إتحاد النساء الأميركيات**» في الولايات المتحدة «**امرأة الأميركيتين**».

* * *

والشاعرة التي ارتحلت عن العالم في العاشر من شهر كانون الثاني، عام ١٩٥٧، تركت بعدها تراثاً أدبياً وإنسانياً، وشعراً يحمل نكهة الأصالة، ونزعة التجديد، وينضح بالحب والاخلاص لعالمها الأول، ونهرها الغالي، الذي أنشدته أصفى شعرها، وكأنها شاءت أن تودع عالمها مثلما يليق بشاعرة، ملوحة بقصيدة الرحيل:

«والآن أفك صندالي الشهير

وأحل غدائر شعري

إني أتوق إلى النوم

وبينما أضيع في الليل

أرفع صوتي بصرخة

تعلمتها منك

يا سيد»

- غابريللا ميسترال - الشاعرة وأعمالها تأليف مارغو دي فاسكيز.

- سيرة ذاتية - غابرييلا ميسترال.

آنا أخماتوفا



«ليس في الكون شعب لا يعرف البكاء، شامخٌ
وبسيط مثل شعبي».



هناك ظاهرة، لا يختلف عليها اثنان، هي أن **روسيا**، أنجبت شعراء عباقرة. وبينما وصلتنا أخبار الرجال الشعراء ومن كل العصور فقد بقيت، الأقلام النسائية، على أهمية بعضها، مجهولة حتى من الفئة التي تعنى بالشعر والنقد الأدبي.

وأنا، لست في صدد الكلام عن الشعر وأهميته، بقدر ما يهمني اختيار شخصية بارزة، يمكننا أن نعتبرها واجهة الشعر النسائي. بل أهم شاعرات **روسيا**، على الاطلاق، إذا استثنينا رائدة في هذا المجال، هي **كارولينا بافلوفا**.

شاعرتنا النبيلة، والعظيمة، هي **آنا أخماتوفا**، التي أتحفت الشعر الروسي، بإبداع تخطى حدود بلادها، وأذاع اسمها في الكون، فباتت صاحبته ذات شهرة عالمية، وان وهج قصائدها، يزداد تألقاً... كما نلاحظ تزايد الاهتمام بكل ما كتبت. ذلك أنها ظلت الصوت المتفرد، والمميز والمخلص لذاته، وللمشاعر الإنسانية الصادقة، قبل إخلاصه لأي شيء...

* * *

ولدت آنا **اندرييفنا غورنكو** في ٢٣ حزيران عام ١٨٨٩ في **بولشوي فونتان** - قرب **أوديسا**. وكان أبوها مهندساً في البحرية، ومن حاشية القيصر. وقد أتمّتْ دراستها الابتدائية والثانوية في مدينة

كييف قبل أن تنتقل الى **بطرسبورغ** (**لينغراد** حالياً) لتتابع دراسة الأدب والتاريخ في المعهد العالي للنساء. ومن ثم، لم تعد تبرح المدينة، فقد قضت فيها معظم سني حياتها. وانسجمت مع أجوائها الراقية، فكانت لها الحضن الدافئ الذي زودها بالأمان، وبتلك الثروة من العطاء الحضاري. كما أفسح لها في المجال لتلتقي نخبة المثقفين، من شعراء وفنانين، فتتأثر بهم، وتسعى معهم الى تجارب مهمة في الشعر الروسي.

* * *

بدأت **آنا** تنشر شعرها، في مرحلة باكرة، وقبل أن تبلغ عامها العشرين. وقامت بين العام ١٩١٠ و١٩١٢ برحلة ثقافية، تنقلت فيها بين **إيطاليا، ألمانيا وفرنسا**. وقد ساعدها على الاستفادة من جولتها، حتى أقصى حد، اطلاعها على آداب تلك البلدان، وباللغات الأصلية، فقد كانت ملمة بالفرنسية، الانكليزية، الهندية، الألمانية، الإيطالية، إلى اللاتينية، وبعض اللغات القومية في الجمهوريات الروسية. وهذا بفضل نشأتها النبيلة، والإمكانات التي استطاعت العائلة أن توفرها لها، وبالتالي، تسهم في تفتّح مواهبها.

كذلك، ساهمت المكتبة الراقية في دار العائلة، في إغناء شخصية **آنا**، وإعطائها الفرصة كي تطلع على أشهر الآثار الأدبية والشعرية في العالم.

وحين أقدمت على كتابة الشعر كان الاسم الطاغي في الشعر الروسي **الكسندر بلوك** حامل لواء الرمزية.

تأثرت به، مثلما يتأثر أي شاعر ناشئ بأستاذ عبقري وصاحب

مذهب واضح، ومسهج مقنع. وكان ديوانه «**قصائد عن السيدة الجميلة**» هو مثال الشعر والعبقرية.

كذلك وقعت تحت تأثير الرمزي الآخر **انينسكي**، كما تأثر بالموحة الرمزية في حينه، معظم الشعراء والكتّاب، فضلاً عن الفنانين التشكيليين.

وقد كتبت **آنا غورنكو** من وحي ذلك المناخ السائد، قصائدها الأولى، لكن الخطوة التالية، كانت أشبه بنقلة قدرية، دفعتها نحو المجرى الرافض لكل المذاهب الشعرية السابقة، والساعي نحو ابتكار الجديد المدهش: وأعني **نيكولاي جيميليوف** الشاعر والمعلم ومؤسس مدرسة **القمية** في الشعر الروسي، وهي تعارض الرمزية، وتنشد الوضوح الجميل. وكان **نيكولاي** قد قام برحلة الى القارة الأفريقية، ورجع منها متأثراً أشد التأثر بالألوان المتوهجة والجمال الوحشي، فراح يكتب ويصور انطباعات تسللت الى خلايا فكره.

وقرأ فيه الروس، شعراً جديداً ومختلفاً، وذا نكهة خاصة.

ووقعت الشاعرة الصبية **آنا** تحت سطوة الأسلوب الجديد، وقد أحبت الشاعر، بقدر ما أعجبت به وبشعره، ثم لم تلبث أن صارت داعية الى مدرسته، ونحتت القسم الثاني من اسمها الجديد (**أخماتوفا**) من كلمة **قمية**. ومن تلك النقطة بدأت توقع باسمها الجديد: **آنا أخماتوفا**.

* * *

والإِعجاب الذي تطور الى حب بين الشاعرين، لم يلبث أن قادهما الى الزواج عام ١٩١٠ . وارتاحت الشاعرة للأسلوب الجديد،

إذ وجدت فيه ما يتجاوب مع نفسها الشعري: فهي تحب الوضوح الجميل، مقتصدة في التعبير، أصيلة، ومخلصة لوجدانها ومشاعرها. وقصيدتها قصيرة، لكنها مشحونة بالصور والأفكار الجديدة، الى جمال ودقة وصفاء ومقدرة على التبليغ...

وفي عام ١٩١٢ ظهر ديوانها الأول «**المساء**» فلفت اليها انتباه النقاد. ثم بدأت شهرتها تترسخ، وتنتشر مع ديوانها الثاني «**السبحة**» وقد صدر عام ١٩١٤ . ثم أتبعته بديوان ثالث عنوانه: «**بجانب البحر**» ثم «**السرب الأبيض**» عام ١٩١٧ و«**لسان الحمل**» عام ١٩٢١ و«**آنو دوميني**» عام ١٩٢٢، وكان آخر ما نشرته في هذه المرحلة. وقد أخذ عليها النقاد محدودية المواضيع التي عالجتها، إذ قصرت اهتمامها على الحب والانفعالات الوجدانية. لكنها دخلت في تفاصيل العبارة. ولم تزيف شعورها أو تَتَخَلَّ عن غنائيتها.

وقد عالجت، فيما كتبت، مشاكل الانفعال الذاتي عند المرأة، اللقاء والفراق. وكتبت بمعزل عن البيئة، أي بفردية شخصية، كانت سبباً في الحرب التي شنها عليها النقاد، قبيل الثورة، وبعدها.

* * *

في الواقع، ان الشاعرة عانت الكثير من الألم، ليس بسبب أسلوبها وحده، بل بسبب قربها من **جيميليوف**. فقد دام زواجهما ثماني سنوات فقط، ثم قررا الافتراق عام ١٩١٨ . وكان قد آثار حفيظة السلطات حين لم يتقبل فكرة الثورة، بل اتهم بالتورط في مؤامرة ضدها. وكانت تلك مرحلة سياسية حرجة، فحكم عليه بالإِعدام رمياً بالرصاص.

هذه الحادثة تركت أثراً حزيناً في نفس الشاعرة... صحيح أنهما منفصلان، لكنه لا يزال أستاذها، ووالد ابنها، والمعلم الذي أخذ بيدها في بدء الطريق. والحملة ضده، لم توفرها... فعاشت فترة قلق واضطهاد. وراحت تغرق في أحزانها، وفي وحدتها. ومع أنها لم تتوقف عن الكتابة، وأصدرت، بعد الثورة، ثلاثة دواوين، إلا أنها لم تتخل عن أسلوبها. ولا دخلت في التيار السياسي الجديد، وربما كان طبعها وتربيتها الأرستقراطية، من بين الأسباب التي جعلتها تقف على الحياد، لا تبالي، ولا تنشد الثورة أو تمتدح السلطة في جملة المنشدين المادحين.

وكانت تنتظرها مأساة أخرى، في مطلع الثلاثينات، حين اعتقل ابنها. وهذا قضى على آخر الآمال، في تحولها نحو التورة. - إنها أمّ. وكأم مظلومة، ومعذبة بعذاب ابنها، عاشت وكتبت. كانت تنتظر ساعات أمام سجنه، لتترك له شيئاً من الطعام. وتقف، وتنتظر، على أمل أن تلمحه وهو يعبر، أو يطل من داخل المعتقل.

تجربتها القاسية، كتمتها، طي جدران الصدر، وفي الكلمات الخرساء، التي انتظرت حتى أواخر الخمسينات، لتتحرر من عقالها. أي أن الشاعرة، لم تعد تنشر، طوال العهد الستاليني.

والقليل الذي نشرته لها بعض مجلات **لينينغراد**، أثار سخط **جدانوف**، فكتب، في معرض نقده لشعرها: «**إن نشر شعر أخماتوفا جريمة**» لأنها كانت تمثل في رأيه، مع بعض التسعراء، الرجعية في الفن. ثم تابع تهجمه بلهجة أقسى فكتب: «**شعرها شعر امرأة هستيرية، جوهره غربي، تشوبه الكآبة والحنين والموت والصوفية**». وفي عباراته كلمات أقسى من هذه اعفي قلمي من إعادتها.

أمام الحزن والألم، والأبواب الموصدة، كيف تستطيع الشاعرة أن تتابع الكتابة عن الحب؟... عن الانسان ومصيره، وقضاياه الذاتية؟... كيف يقوى البلبل على متابعة غنائه؟... وهكذا انصرفت الشاعرة إلى الترجمة، وكتابة الدراسات النقدية، وهي مؤهلة لذلك، إذ عاشت عمرها في المدينة الراقية (**لينغراد**) واختمرت بخمائرها الحضارية. وقد درست بعمق وإحساس أعمال الشاعر **بوشكين**، وقامت بترجمة **ليوباردي وطاغور** ونماذج من الشعر التتري، تساعدها في ذلك ثقافتها الواسعة، ومعرفتها لأكثر من لغة. ثم بدأت كتابة دراسة عن **ليرمنتوف**، لم تنجزها.

وإذا لم تبال بالثورة، فإنها لم تترك فرصة تفوتها، من دون أن تعبر عن تعلقها بأرضها، بوطنها، خصوصاً حين تعرضت بلادها للخطر إبان الغزو الألماني. فقد عاشت حصار **لينغراد** خلال الحرب العالمية الثانية، ذلك الحصار القاسي، الذي عرفت فيه أهوال الحروب، ومآسيها وجورها على الأبرياء. وبدأ شعرها يتفجر حباً للشعب، للإنسان، وللأرض، **لروسيا** - الأم كما تعتبرها:

«ليس في الكون،
شعب لا يعرف البكاء،
شامخ وبسيط،
مثل شعبي»

وفي عام ١٩٤٢ كتبت تقول:

«الخبز الغريب مر،

نعلم، اننا صانعو التاريخ...
ساعات الشجاعة تدق،
والبسالة لن تهجر نفوسنا،
إننا لا نهاب الموت،
ولا نبكي، فوق أطلال الدور المسلوبة».

ثم تنتقل الى مخاطبة بلادها عبر لغتها:
«يا ألفاظنا الروسية،
يا لغة الأرض العظيمة،
سوف نبقى، نغمك الطلق الجميل،
نورثه الأجيال الطالعة،
وسوف ننقذك،
بل نظل نتنفسك
الى الأبد...»

* * *

وهذا، بالطبع يختلف عن التسعر الفردي، والذي كانت تقف فيه، بمعزل عن الأرض، والشعب. لكن خميرة تعلقها بأرضها، كانت مختمرة في ذاتها. وفي العام ١٩١٧، أي عام الثورة كتبت قصيدة، تسجل فيها هجر البعض ارض روسيا. أما هي، فقد رفضت الخروج، و«**صممت أذني، عن النداء البعيد، الآتي من خلف الحدود... أن: اخرجي**».

نهاية العهد الستاليني كانت تعني مرحلة إذابة الجليد بالنسبة الى الشعراء وسواهم من الأدباء والفنانين. وبدأت تسمع في **روسيا** اصوات جديدة، وأطل فوج جديد من الشعراء الشباب، وكان النسغ الحي والمبارك، لم ينضب في كيان الشاعرة، فراحت تنشد بعد صمت طويل: سجلت قصائد وصفت فيها معاناتها، وعذابها، الصمت والوحشة، وغربة النفس داخل الوطن. والحصار، والهجرة الى الذات. وكتبت قصائدها هذه في **ليننغراد**، في **موسكو** وفي **طاشقند**، حيث أقامت فترة خلال الحرب العالمية الثانية كما في بيتها الريفي على نهر **الفونتانكا**. ولقي شعرها تجاوباً قوياً في نفوس القراء. كما استقبلها النقاد الجدد، بالتقدير الذي تستحقه شاعرة في مثل وزنها.

وكانت الاطلالة الأولى للتاعرة عام ١٩٦١ في قصيدتها الرائعة «**قصيدة بلا بطل**» أو سجل الصمت والعذاب. وفي عام ١٩٦٣ نشرت «**صلاة على روح الموتى**» وهي وصف دقيق للساعات المظلمة التي قضتها أمام معتقل ابنها.

وفي العام ١٩٦٤ أعدت للنشر مجموعتها الكبيرة «**مجرى الزمن**» وزينت غلافها بلوحة زيتية رائعة رسمها لوجهها الفنان **موديلياني** قبل خمسين سنة من ذلك التاريخ. والمجموعة هذه، تضم قصائد كتبت بين عام ١٩٠٩ و١٩٦٤، وقالت في معرض كلامها عنها: «**سوف يلاحظ القارئ أني لم أهجر الشعر أبداً، فهو الرباط الذي يصلني بالزمن، بل بالحياة**».

وعلى اثر صدور هذا الديوان لبت دعوة تلقتها من جامعة **أوكسفورد** في **بريطانيا** حيث منحت دكتوراه فخرية تقديراً

لأعمالها. كما منحت جائزة **اتناتاورمينا** في **إيطاليا**. وهذان الحدثان يشيران الى التقدير الذي جاءها من الخارج، ومن بلاد أوروبية راقية.

وحين عادت من تلك الرحلة، بدأت تكتب مسرحية تراوح بين الشعر والنثر عنوانها «**استهلال**» لكنها توفيت قبل أن تتمها. وكانت وفاتها في الخامس من آذار عام ١٩٦٦ في **لينينغراد** المدينة التي اخترقت كل ذرة في شعرها، كما في وجدانها.

* * *

ويبقى لنا، من الشاعرة الكبيرة، ذلك الدرس البسيط: إن العبقرية تتابع مسيرتها، برغم كل ما يعترضها من عقبات. والنفوس الكبيرة، لا تسمح للظلم بأن يمحوها، بل تنهض للمواجهة، حاملة أبداً مشعل الحق... والشاعرة التي تزداد أهميتها مع مرور الزمن، استحقت من النقاد ألقاباً كثيرة، وقال أحدهم: «**إنها تمكنت من خلق «ذاكرة القلب» الى جانب ذاكرة العقل والخيال، وحافظت على روح الشعر الروسي الأصيل، وعلى توهجه وتألقه، كي تسلمه خصباً معافى، لشعراء الستينات**». وسوف يظل شعرها الغنائي العبقري تعبيراً عن الانفعالات الصادقة والأفكار، والرؤى الأصيلة، أهم ما في وجود الإنسان.

- ثلاثة قرون من الشعر في روسيا.
- الأدب والثورة - الشعر الروسي الحديث تأليف د. صبري حافظ.
- الموسوعة البريطانية.



آغاثا كريستي



«كانت تطل بقصصها في كل موسم، مثلما تطلع براعم الزهر في الربيع وكما تنضج الفاكهة في الصيف».



اسمها: غني عن التعريف، لا في بلد واحد، أو بقعة معينة، من الكرة الأرضية، إذ إن ظل قصصها امتد، فغطى مساحة شاسعة من حجم العالم، وطافت رواياتها البالغ عددها ثمانين رواية، بين شعوب الأرض قاطبة، كما ترجمت إلى العديد من اللغات التي تنطق بها تلك الشعوب.

والذين يكتبون سيرتها اليوم، يرون شبهاً بينها وبين امرأة أخرى من بلادها، طبعت حقبة تاريخية بطابعها الخاص، فسمي كل ما أنتجته تلك الحقبة من علوم وآداب وفنون، باسمها...

تلك **«المرأة الأخرى»** هي **الملكة فكتوريا**.

* * *

ولدت **أغاتا** أو **(ماري كلاريسا)** في ١٥ أيلول، عام ١٨٩٠ . أي في أواخر الحقبة الفكتورية. وكان أبوها، الأميركي الأصل، يعيش مع زوجته وولديه **مادج**، **ومونتي** في بلدة **«توركي»** من مقاطعة **«ديفون»** البريطانية.

وجاءت **أغاتا** آخر العنقود، إنما بعد مرور عشر سنين على ولادة الأصغر في العائلة.

لم يكن أبوها يشغل مركزاً ذا أهمية. وكان رجلاً هادئاً، وثرياً

يعيش من بدل إيجارات لأملاك تخصه، وينفق وقته بين النادي والبيت.

وكانت **أغاثا** في الخامسة من عمرها، حين بدأ والدها، يواجه ضائقة مالية، فانتقل مع العائلة إلى جنوب **فرنسا** بعدما أجر الأملاك أو رهنها.

نشأت **أغاثا** طفلة عادية، لا تستطيع التعبير عن أفكارها بسهولة، ولم تذهب إلى المدرسة الابتدائية، إذ تولت أمها مهمة تعليمها في البيت. وكان الانتقال إلى بلد جديد مهماً بالنسبة إلى الصغيرة، إذ بدأت تتعرف إلى لغة جديدة، وحضارة تختلف عن حضارة بلادها. لكنها بقيت محرومة من الصداقات مع أتراب من عمرها، وهذا ما دفعها إلى قضاء فترات طويلة من وقت فراغها، في التأمل، أو القيام بنزهات في أرجاء الطبيعة.

وكانت الطفلة في العاشرة من عمرها، حين توفي والدها، وقررت أمها أن تحتفظ بأملاك العائلة، فلا تبيعها بعدما اصطلحت الحالة المالية.

وهكذا عادت الأسرة اليتيمة إلى وطنها، لتعيش فيه حياة بسيطة.

* * *

وكان هناك باب مفتوح أمام **أغاثا** على الأمل والنموّ، هو باب المطالعة الذي قادتها إليه شقيقتها الكبرى **مادج**، وكانت هذه ذات ميول أدبية، وقد نصحتها بقراءة قصص **كونون دويل وجول فيرن** وسواهما. كما كانت تقرأ لها قطعاً أدبية كتبتها هي، وتحدثها عن طموحها إلى أن تصبح كاتبة في مستقبل قريب.

ولما بلغت **أغاثا** السادسة عشرة من عمرها، أي سن التفتح، والوعي الفكري والعاطفي، قررت أمها أن ترسلها إلى **فرنسا**، كي تضيف إلى معارفها، المكتسبة في البيت، علوما وفنوناً جديدة. وهكذا راحت تنتقل بين عدة مؤسسات، ولم تكتف بقراءة الأدب، بل تعلمت الموسيقى وأولعت بها، كما درست أصول الغناء، ومنعها خجلها من التقدم في هذا المجال، كما كانت متفوقة في الرياضيات، هذا التفوق الذي دخل في سر البنية الروائية فيما بعد.

ولما عادت إلى بلادها بعد سنتين من جني ثمار العلم والفن، كانت قد أصبحت صبية، مستعدة لتواجه الحياة، مثل أية فتاة من جيلها، ومن طبقتها المرتاحة مالياً.

* * *

كان للفتاة ولع خاص بالمغامرة والسفر. وأول رحلة قامت بها كانت إلى **فرنسا**، وربما استوحت من تلك الرحلة موضوع أول رواية كتبتها، بتوجيه من أمها، وكانت رواية هزيلة عنوانها «**ثلوج فوق الصحراء**».

في هذه الأثناء، راح نجم التشقيقة الكبرى، **مادج** يتصاعد؛ فهي أجمل من أختها الصغرى، وذات موهبة أدبية تلفت الأنظار، وشعرت **أغاثا**، حيال هذا الوضع، بأنها عاطلة عن العمل ومعدومة الجاذبية، ولا تملك ثروة مثل معظم صديقاتها...

ربما كانت هذه العوامل، الحافز الذي دفعها الى ان تكتشف مهرباً لنفسها في عالم الإبداع، فبدأت تكتب قصصاً قصيرة وترسلها إلى المجلات. وظلَّ معظم تلك القصص، يرجع إليها حاملاً أسف الناشر...

وفكرت في ان تجرب حظها في كتابة الرواية. فكتبت رواية خيالية، تدور أحداثها في **القاهرة**، وكانت، حتى تلك المرحلة، نافذتها على العالم، وعلى الشرق بصورة خاصة.

لكن «**الناقدة**» **مادج**، هاجمتها بضراوة، ودعتها الى ان تتخلى عن الخيال لتغوص في الواقع. أي أن توجيه **مادج**، كان مهماً جداً، إذ وضعها على الخط الصحيح، وبالطبع كانت هي تحبها، وتحترم رأيها، لا لكونها الشقيقة الكبرى وحسب، بل لأنها متفوقة أدبياً... حتى ذلك الوقت، على الأقل.

وهنا بدأت معها قراءة الروايات البوليسية. لكن الصبية، كانت تطمح، إلى جانب طموحها الأدبي، الى ان تتزوج شاباً تحبه، وظنت أن **ريجي لويس** هو ذلك الشاب، فقبلت بخطبته، لكن الخطيب لم يلبث أن سافر إلى «**هونغ كونغ**»، وتركها خلفه، تكتب الرسائل، وتصف لوعة الفراق. ورد عليها الخطيب برسالة مختلفة، شجعها فيها على الخروج مع غيره.

وحين أدركت هذا الموقف حيالها، تركته، وتعرفت إلى شاب وسيم في سلاح الطيران الملكي يدعى **أرشيبلد كريستي**. وهو الذي حملت اسمه، حتى نهاية حياتها.

كان العام ١٩١٢، والطيران حلم جميل، يغارل مخيلة الصبية، ويحملها على متنه. لكن الحلم تلاشى، حين بدأت طبول الحرب تقرع حولها، ووجدت نفسها ذات يوم، في معهد يدرّس التمريض، ويعدّها، مع سواها من الفتيات، لإنقاذ الجرحى وضحايا الحرب. وقد تزوجت **كريستي** قبل أن يسافر إلى الخدمة في الخارج عام ١٩١٤ .

وصارت **أغاثا**، تقضي وقتها بين المرضى، تساعدهم، تكتب لهم الرسائل إلى ذويهم وتحرّر، في أوقات الفراغ، رسائل أخرى إلى الزوج الذي كان يحارب على الجبهة. ولم تكتف بالاسعاف وحسب، بل اهتمت بدراسة الأدوية، وسر تركيبها. وذكر هذا مهم، بالنسبة إلى تطور القصة، والعناصر التي كانت تتداخل فيها، والدواء ومزجه، من العناصر المهمة، والأدوات التي لم تغب في معظم رواياتها.

* * *

نصيحة **مادج** فعلت في نفس **أغاثا**، فعادت إلى الواقع تلملم منه أدوات العمل، وراحت تجمع الخبرات والتفاصيل التي أدخلتها في تركيب بنية الروايات.

والطريف في هذه الكاتبة، أنها كانت تلتقط شخصياتها، وأبطال رواياتها، من بين أناس لا تعرفهم وربما تلتقيهم في قطار، أو خلال تجوالها في حديقة عامة.

ويبقى اهم الشخصيات ذلك الشرطي الغريب الأطوار، الأناني، «**هركول بوارو**» الذي رافقها من أول رواية حتى الرواية الأخيرة، حين قررت أن تحرره من دوره، ولا تتركه حياً بعدها، فهي منظمة، في حياتها، كما في عملها، وهكذا حكمت بموت «**بوارو**» في قصتها «**بوارو يغادر المسرح**» وذلك بسبب انسداد في شرايين القلب، وبعدما رافقها منذ ولادة قصتها الأولى حتى النهاية، أي طوال ستين عاماً.

ولم تعش هي بعده سوى ثلاثة أشهر.

* * *

أما الشخصية المهمة الثانية، والتي ولدت مع روايتها «**جريمة في الأنطش**» عام ١٩٣٠ فهي **الآنسة جين ماربيل**، العانس القديرة، وأول امرأة شرطية في هذا العصر. وكانت قد سبقتها عام ١٩٢٦ رواية «**مصرع روجيه أكرويد**» والتي تعتبر من الأدب البوليسي الكلاسيكي.

الكاتبة على طريق الشهرة. رواياتها بدأت تقبل في المجلات، والصحف تنشرها مسلسلة. وفي ذات يوم تصلها رسالة من ناشر كانت قد نسيته ويذكرها بعقد وقعته، وارتبطت بواسطته، كي تكتب خمس روايات لحسابه. هذا وكان زوجها قد سرح من سلاح الجو، بسبب التهاب في الأنف، وأصبحت هي أماً، لطفلة سمتها **روزاليند**.

وهنا بدأت خط كتابة التصق بشخصيتها، أي الكتابة تحت الطلب. وأول كتاب كان مردوده خمساً وعشرين ليرة إنكليزية، وهي قيمة ضئيلة، إنما تعتبر جيدة بالنسبة إلى البدء.

ومن أجل تلبية طلبات الكتابة قامت برحلة زارت خلالها بلاداً **افريقية، وأوستراليا وهونولولو**. وقد استخدمت أجواء تلك البلدان خلفيات لرواياتها، التي أطلقت شهرتها، وجعلتها سيدة قلمها، وأهم من هذا، أصبحت هي تفرض شروطها على الناشر.

وهذا بالضبط ما فعلته، حين تقدم ناشر بعقد، يلزمها فيه بكتابة خمس روايات لحسابه... وقد تخلت عن هذا الناشر، وبحثت عن آخر سواه، يقدر قيمة عملها، وأهمية الحرية كمناخ للإبداع.

وقد انتقلت مع زوجها وابنتها لتقيم في الريف. لكن الزوج كان

آخر من يهتم بما تكتب. فهو مولع بلعبة «**الغولف**» وهذا كل همه. غير أنه لم يتخلَّ عن المدخول الذي بدأ يرد من كتبها، فطلب منها المال كي يشتري سيارة، ومنزلاً قريباً من ملعب «**الغولف**». ثم خطر له أن يسافر إلى **اسبانيا**، ورفضت أن ترافقه، فتركها، ولم يكترث. وكانت تمر بضائقة مالية وعاطفيّة إذ هددها زوجها بالطلاق. وابنتها تتطلب منها العناية والحنان. وتوفيت أمها وهي عنها بعيدة، ففقدت ذاكرتها مدة أسبوعين. وسط بؤس المشاعر، وجدت أن الكتابة هي أفضل الحلول.

وهكذا بدأت على طريق الاحتراف.

* * *

عاشت **أغاثا** في انكلترا على إثر طلاقها من زوجها عام ١٩٢٨، لكنها كانت تقوم برحلات إلى الخارج، تنشد الدفء في بلاد الشمس والمغامرة التي تردفها بمواضيع جديدة.

وكانت قد سمعت عن **بغداد**، وقطار الشرق. فألغت رحلة كانت تعد لها لزيارة «**جامايكا**» وسافرت إلى **بغداد**. وكانت تتامل الناس، وعاداتهم وتدرس تصرفهم. وفي طريقها مرت في **كاليه - استانبول، حلب، دمشق، بعلبك فبغداد.**

ولم يتسن لها أن تزور مدينة «**أور**» الأثرية خلال تلك الرحلة، فعادت إليها في السنة التالية.

* * *

هنا، يبدأ منعطف جديد في حياة **أغاثا** الإنسانة، إذ تعرّفت، خلال

هذه الزيارة، إلى عالم الآثار **ماكس إدغار مالوان**. وخلال تجوالهما بين الآثار تعطلت السيارة. وكانت الشمس حامية، وهي منهكة من السفر، فنامت في ظل السيارة واكتشفت خلال هذا اللقاء، أن **ماكس** هو الرجل الملائم لرفقة العمر، فهو عالم، ويقدر مكانتها الأدبية، وقد أحب قصصها، فقرأ، كل ما كتبت، حتى تلك الساعة، كما أبدى اهتماماً بابنتها.

وهكذا، حالما عادت إلى **إنكلترا**، عملت بنصيحة أحد الأصدقاء، فتزوجت **ماكس**، برغم أنه أصغر منها بخمس عشرة سنة. إذ كان في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين.

تم الزواج في شهر أيلول عام ١٩٣٠ . وقام العروسان برحلة العسل إلى الشرق... وكانت تكتب في الخانة المخصصة للوظيفة، في جواز سفرها: امرأة متزوجة.

والزوج، الذي كان هاوياً المطالعة، بات أول المعجبين برواياتها. وارتاحت هي إلى هذا التشجيع، يأتي من شريك العمر، ومن صديقها والرجل الذي أحبها، متجاوزاً فرق السنين.

* * *

مرحلة استقرار جديدة في حياة الكاتبة. رواياتها منتشرة، وتترجم. وهي تجرب حظها في كتابة المسرحيات. والرواية الكلاسيكية الوحيدة، التي كتبتها وعنوانها «**خبز العمالقة**» كانت حول الموسيقى وقعتها بإمضاء مستعار.

أما المسرحيات التي اشتهرت لها فهي «**عشرة عبيد صغار**» وقد ترجمت إلى العديد من اللغات، أما مسرحيتها «**مصيدة الفئران**» فقد

ضربت رقماً قياسياً في الاستمرار إذ إنها تقدم كل ليلة، فوق أحد مسارح لندن، ومنذ العام ١٩٥٢ .

وبلغ عدد الروايات التي كتبتها، خلال ستين سنة، ثمانين رواية، بيع منها، حتى **العام الفائت**، خمسمائة مليون نسخة. وهذا رقم قياسي، لم يبلغه أي كاتب قبلها. وحتى **شكسبير** يأتي في الدرجة الثانية بالنسبة الى الرواج... ولها تسعة كتب أخرى وثماني مسرحيات.

* * *

وبالطبع، هذا النجاح، جعل المال يتدفق عليها، وقد أهدت الكثير من اعمالها إلى المقربين إليها، ابنتها، زوجها، وبعض الأصدقاء. وخصت حفيدها العزيز **ماثيو ريتشارد** بريع مسرحية «**المصيدة**»... كما يقوم بإدارة مؤسستها.

واستخدمت قسماً من المال لإصلاح بيت العائلة، وأنشأت حوله المدارس، ومنتجعات الراحة.

وقد أغنتها تجربة السفر والتنقل، الملتزم بها زوجها، بسبب عمله في الآثار. ووجدت في عوالم الماضي الكثير من الروعة والجاذبية، فاستغلتها في بناء رواياتها.

* * *

لكن الحرب، لم تلبث أن اشتعلت. إنها الحرب العالمية الثانية. وتعود **أغاثا** تخدم المرضى في مستشفى بلدتها، وانضم زوجها إلى سلاح الجو، وأخلت بيتها ليقيم فيه الأطفال اللاجئون. ثم انتقلت إلى **لندن**، خلال قصف المدينة، وعاشت في الأقبية، وكانت تكتب في

اوقات الفراغ، وتصدر كتابين دفعة واحدة. وقد أنتجت أيام الحرب بغزارة تفوق إنتاجها أيام السلم وكان يرافقها في الملجأ، عدا القلم والورق، معطف فرو وكيس ماء ساخن.

* * *

عندما بلغت **أغاثا** الخمسين من عمرها. بدأت تكتب مذكراتها، حتى عامها الخامس والسبعين. وتوقفت بعد ذلك لأنه: «**لم يَبْقَ هناك شيء هام يستحق التسجيل**».

غير أنها لم تتوقف عن الكتابة، إذ اعتبرت الكلمة الرفيق الذي يبقى معك حين تفارقك الطاقات والقوى الأخرى جميعاً...

وهي من القائلين، بأنه لا يجوز للكاتب أن يتوقف عن الكتابة في حالات السلم أو الحرب، الحزن أو الفرح. لأن الكلمة، ملجأ، ومنقذ.

وقد آمنت بها حتى النفس الأخير. وحين توفيت في ١٢ كانون الثاني عام ١٩٧٦ عن ست وثمانين سنة، كانت لا تزال تحمل القلم في يدها. القلم الذي قطف لها المجد، والشهرة، وجعلها ملكة القصة البوليسية، والسيدة «**التي أدخلت الجريمة إلى الصالونات الأرستقراطية**» و«**رابع امرأة مترجمة في العالم**». و«**المرأة التي كانت تطل بقصصها، في كل موسم، مثلما تطل براعم الزهر في الربيع ومثلما تنضج الفاكهة في فصل الصيف...**».

والقصة البوليسية، تخرجت على يديها من المعهد البريطاني، وراحت تطوف العالم من **بغداد**، إلى **القاهرة** إلى جزر **الكاريبي** إلى كل بلاد الناس.. كل الناس الذين احترمتهم، وبادلوها التقدير،

وأحبتهم، مثلما أحبت الحياة، وأخلصت لهم إخلاصها لأبطال قصصها.

- مجلة المختار عدد يناير ١٩٨٣ .
- سيرة حياة - تأليف: أغاتا كريستي.



بيرل باك



«لماذا ننفق الأموال على الرحلات الفضائية، بينما كوكبنا الارضي غارق في الجوع والفقر والبؤس؟!...».



حين تذكر أدبيات القرن العشرين، يبرز اسمها، ليقف في الطليعة.

بيرل س. باك كاتبة من **أميركا**، قفزت إلى أقصى الشرق، ومنه استلهمت معظم كتاباتها التي لفتت إليها الأنظار، وصنفتها واحدة من أهم أدباء العصر.

* * *

ولدت **بيرل** في ٢٦ حزيران عام ١٨٩٢ في بلدة «**هلسبورو**» بولاية **فرجينيا الغربية**، بلاد التلال والغابات والطبيعة الرائعة. وقد غادرت **أميركا**، وهي بعد طفلة، إذ حملها أبواها المبشران إلى **الصين**، حيث عاشت معهما في مدينة «**تشين – كيانغ**» على ضفاف نهر «**يانغ – تسي**». وكانت مربيتها صينية، ومنها تعلمت تقاليد الشعب الصيني، والسحر البوذي والتاوي. وتقول في ذلك: «**لقد تعلمت الصينية قبل الانكليزية**».

ومن سيرة حياتها نقرأ المقطع التالي: «**عشت في الصين طفولة متوحدة. نشأت في بلدة «تشين – كيانغ» في منزل محاط بالتلال والأودية المزروعة. عند سفح التلة كان هناك معبد ورجل عجوز. وكان العجوز يطاردني بعصاه فأشعر بالخوف والطمأنينة في آن. من هذا الكاهن تعلمت الصينية، واهتمت أمي بتعليمي الانكليزية**».

وقبل ان نتابع نموها الأدبي، لا بدّ من رصد الخلفية الثقافية والفكرية التي كوّنت **بيرل** الكاتبة الانسانة المميّزة.

لقد تابعت دراستها الثانوية في «**شنغهاي**» قبل أن تعود الى **اميركا**، وتدخل كلية «**راندولف ماكون**» للبنات، ومنها تخرّجت حاملة شهادة **بكالوريوس**، ثم شهادة **ماجستير** عام ١٩١٤ .

وكانت امها تدفعها على الاستزادة من العلم، لكي تعوضها من خيبة عاشتها هي. ارادتها ان تتعلم مثل أي فتى.

وكان عام ١٩١٧ هاما بالنسبة الى **بيرل** الصبية، اذ تزوجت **جون لوسي باك** وهو خبير زراعي، انتقلت معه الى شمالي **الصين**، حيث قضيا خمس سنوات، كتبت **بيرل**، على أثرها، بأنها تشك في ما يستطيع أن يقدمه خبير اميركي للفلاح الصيني الذي عايش الأرض ألوف السنين.

وحين عادت الى **اميركا**، قضت **بيرل** فترة في جامعة «**كورنيل**»، ومنها رجعت الى **الصين**، حيث عملت في تدريس اللغة الانكليزية في جامعة «**نانكينغ**».

خلال هذه الفترة، كانت **بيرل** تسجل أولى محاولاتها الأدبية، وتراسل المجلات الأميركية، تزودها بقصص ومقالات عن الحياة في **الصين**، وعن تجربتها المتميزة، ساعية إلى تقريب وجهات النظر بين الشعوب. وكانت اولى ثمار عطائها الروائي «**ريح الشرق وريح الغرب**». لكنها تعترف، في مذكراتها الشخصية، بأن أول عمل روائي كتبته ووضعته على الرف هو كتابها عن أمها، لكنه جاء السابع على لائحة النشر.

ومقابل هذا النجاح الأدبي الذي بدأت تتذوق طعمه، كانت حياتها الزوجية تسير متعثرة، إذ خاب أملها بالزوج الذي لم يكترث

لأدبها، ولا حاول فهمها، كما أن ثمرة زواجهما كانت ابنة متخلفة عقلياً، غرست في صدر الأم بذور الحزن، التي راحت تنمو بصمت إلى أن تفجرت عام ١٩٥٠ في قصة عنوانها «**الطفلة التي لم تكبر**».

وتعترف الكاتبة، بحزن صامت فتقول: «**أشعر بالراحة لأن أمي توفيت قبل أن تعلم ما كان ينتظرني**»، إذ لم تكتشف أن ابنتها متخلفة حتى بلغت سن الرابعة.

وكانت لا تزال في الصين حين تبنت طفلة أخرى، قبل سنوات من قيام مشروع التبني الذي أفرغت فيه أمومتها، ومعطياتها الإنسانية النبيلة.

* * *

سارت **بيرل** على خط واضح في التأليف، إذ كتبت عن تجربتها وحياتها بين عالمين: الشرق والغرب، وبين بلدين يختلفان في المفاهيم والقيم. وأصدرت كتابين قبل أن تنشر الرواية الأهم، والتي بنت عليها شهرتها، وأعني «**الأرض الطيبة**» وذلك عام ١٩٣١ .

هذه الرواية دفعتها إلى ذروة الشهرة والنجاح الأدبي، ولكن الأمر لم يكن سهلاً منذ البدء، إذ إن المخطوطة رفضت من عدة دور للنشر، بحجة أن لا أحد، في الغرب، يهمه أن يقرأ عن الفلاحين في **الصين**. ولكن، ما كادت تقبل، وتنشر للمرة الأولى، حتى أخذ النقاد يتسابقون على الاشادة بها، واستحقت من أجلها جائزة «**بوليتزر**» اهم الجوائز الأدبية في **أميركا**.

كما حصلت على **ميدالية وليم دين هويلز الذهبية**، لكن التقدير

الأهم، جاء من بلاد **السويد**، فقد منحت جائزة «**نوبل للآداب**» سنة عام ١٩٣٨ على ثلاثيتها التي ضمت، إلى «**الأرض الطيبة**» رواية «**البنون**» و «**البيت المنقسم**» ونشرت تحت عنوان «**بيت من تراب**». وكانت أول كاتبة أميركية تحصل على جائزة «**نوبل**».

وجاء في براءة الجائزة: «**من أجل وصفها الرائع والفني لحياة الفلاح الصيني**».

* * *

أما الكاتبة، فتقول في مقدمة الرواية: «**لم تكن هناك حبكة ولا عقدة روائية. كان أمامي رجل وامرأة، وأولادهما، وكنت أعرف علاقتهم الأصيلة بالأرض. هؤلاء الناس الطيبون مهمون، ليس في الصين وحدها، وإنما في العالم كله. وقد أعطيتهم أسماء صينية إذ لم أكن اعرف سواهم. وهم يمثلون ملايين الفلاحين. إن الناس الذين قرأوا الرواية تجاوزوا كون الأبطال صينيين، وصاروا يعرفون فيهم الطيبة والأصالة**».

* * *

كانت الجائزة العالمية محطة انطلاق للأديبة، فراحت اعمالها تنتشر، بين الشرق والغرب، وأخذ القراء يتابعونها مترجمة في عدة لغات، وأصبحت **بيرل** رائدة حركة أدبية، إذ كانت أول من بنى جسراً يصل الغرب بالشرق الأقصى عن طريق الفكر والكلمة الصادقة المحبة. بل إنها كانت، في الحياة، الجسر الإنساني الذي ربط بين حضارتي الشرق والغرب، وقد توصلت إلى ذلك بواسطة لغة بسيطة

أنيقة، كما ترجمت حبها للناس، وللحضارة الصينية، فأعطت أدباً غنياً، يقدره الآسيويون والغربيون على السواء.

ومن خلال عيني هذه الكاتبة، تمكن ملايين البشر أن يعبروا إلى أعماق الحضارة الصينية.

* * *

وبما أن المجال، هنا، لا يتسع لمراجعة نماذج من أدبها، فإني أكتفي بذكر بعض العناوين لأهم أعمالها، وهي تنقل المناخ الذي تدور فيه روايات **باك**: «**ريح الشرق وريح الغرب**»، «**الأرض الطيبة**»، «**كل الناس أخوة**»، «**رسالة من بكين**»، «**جسر للعبور**»، «**أولاد للتبني**»، «**من صديق إلى صديق**» و «**البعيد والقريب**».

هذا قليل من كثير، وهو خير مثال على الجسور التي شيدتها، للعبور الحضاري.

لكن أدب **بيرل** لم يقتصر على محاولات غرس التفاهم بين الشعبين الصيني والأميركي، بل إن مواضيعها تشعبت فأثارت في كتبها قضايا التحرر، وكتبت عن المرأة الأميركية العاملة، وعن التربية، وخصوصاً تربية الأولاد المتخلفين، وكتبت روايات للأولاد، وحكايات أسطورية للأطفال.

* * *

وماذا عن «**الأرض الطيبة**»؟

إن الكاتبة رسمت في هذه الرواية، صورة للصراع الذي يعيشه الفلاح «**وانغ – لونغ**» مع زوجته «**أو – لان**» من أجل التمسك

بالأرض، والخلاص من الفقر. وقد نجح الزوجان، على حساب انهيار الأرستقراطية ونهوض الطبقة الوسطى.

وكان تركيز الكاتبة، في هذه الرواية، كما في معظم أعمالها، على الإنسان، ونضاله، في أية منطقة من مناطق الوجود، ضد من يستعبده ويستغله، ويسحق إنسانيته وكرامته. واجتهدت لتعبر عن أفكارها، بأسلوب هادئ، بعيد عن التعقيد، وبلغة أنيقة سهلة.

وعن طريق إخلاصها وحرارة وصفها، ودقة ملاحظتها، تمكنت **بيرل** من أن توصل الإنسان الصيني إلى أعماق الآخرين، في أية بقعة من الوجود. وهذا سر الأدب الإنساني الذي ظلت اميرته حتى آخر كلمة كتبتها.

* * *

وفيما كانت الكاتبة تندفع إلى ذروة المجد الأدبي، كانت حياتها الزوجية تنحدر إلى الحضيض، حتى انتهت بالطلاق عام ١٩٣٤، وكانت قد عادت مع ابنتيها إلى **أميركا**، وانصرفت الى التأليف والدراسة، ونالت شهادة «**ماجستير**» فخرية من جامعة «**يال**». ولم يطل بها الوقت، حتى تزوجت ناشر كتبها **ريتشارد والش**، وكان قد انقضى عام على الطلاق، وعاشت مع زوجها الثاني ربع قرن، إلى أن وافته المنية عام ١٩٦٠ .

وكانت هذه المرحلة زاخرة بالعمل والعطاء الفكري، وساهم زوجها بقسط كبير من نجاحها، إذ كان يشجعها، ويتولى نشر كتبها، ورعايتها مع ابنتيها.

ولم ينحصر تفاهم الزوجين في الشؤون الأدبية، بل تعداها إلى

المدى الإنساني حين اتفقا على تبني تسعة أطفال، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكان أولئك الأطفال من آباء أميركيين وأمهات أسيويات، وقد كونوا النواة الأولى لمؤسسة «**بيرل باك**» للتبني، وقد رصدت لها ثروتها كلها، وكانت تبلغ، حين وفاتها، عام ١٩٧٣، سبعة ملايين دولار.

* * *

بعد وفاة زوجها، انتقلت **بيرل** إلى **بنسلفانيا** وأقامت في منزل هادئ، تحيط به المناظر الطبيعية، التي كانت تفتنها، وتغني بوصفها، أدبها. وبقيت في هذا المنزل، تستقبل زوارها، والمعجبين بأدبها وبشخصيتها، إلى أن وافاها الأجل، وهي في الحادية والثمانين من العمر.

تفيد الدراسات والمراجع الأدبية، أن مؤلفات الكاتبة تجاوزت الستين كتاباً، يطغى عليها، كما سبق وقلت، الطابع الروائي القصصي وما كتبته عن مجتمعي **الصين** و**أميركا**. وتميزت كذلك بكتابة المقالة الأدبية، والاجتماعية، وكانت هذه المقالات، بالغة العمق والشمول، حتى ليشعر قارئها، بأن الكاتبة، تعيش مع كل جيل، ولا يفوتها أي ابتكار أو جديد على صعيد الاكتشافات العلمية والإنسانية.

فمن مقال لها، حول رحلة الأميركيين إلى القمر، نقرأ: «**لماذا ننفق الأموال على الرحلات الفضائية، بينما كوكبنا الأرضي غارق في المشاكل: الجوع، الفقر والبؤس؟**

إن هذه الرحلات ليست سوى محاولات للهرب من الأسى وتقريع الضمير».

وتتابع بشاعرية: «**ذات مرة، سألت إحدى الزوجات الجميلات** (زوجات رواد الفضاء):

- هل يتغير الأزواج بعد عودتهم من تلك الرحلات الفضائية؟.

فتطلعت إلى رفيقتها ثم قالت:

- إنهم لا يعودون إلى الأرض.. شيء ما، يبقى هناك.. ولا ينسون الفضاء الخارجي مطلقاً».

* * *

إن هذه الكاتبة التي وسعت رقعة اهتمامها الفكري والإنساني، من **أميركا إلى الصين**، لم توفر المقربين منها. فقد راعتها التفرقة العنصرية التي طالعتها، في بلادها، وكتبت في ذلك مقالات إنسانية هامة. كما خصصت بعض رواياتها لسيرة أناس عرفتهم عن كثب، وعاشت صراعهم، واستلهمت اعمالهم.

ففي العام ١٩٣٦ كتبت سيرة حياة والدها «**أبسالوم**» وجعلت عنوان كتابها «**الملاك المحارب**». وفي السنة ذاتها، صدر كتابها عن أمها **كارولين** تحت عنوان «**المنفى**» وأشرت سابقاً إلى قصة «**الطفلة التي لم تكبر**» عن ابنتها المتخلفة.

ولم توفر نفسها فنشرت عام ١٩٥٤ مذكراتها تحت عنوان «**عوالمي المتعددة**» وفي هذا الكتاب يكتشف القارئ الشخصية التي وقفت وراء النجاح العظيم، بعدما واجهت في الحياة الكثير من المصاعب والخيبات والمخاطر. وقد حولت كل تجربة، مفرحة كانت أم محزنة، إلى قناة الايجابية التي كانت مسراها.

ومن الجوائز وشهادات التقدير:

* جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٨ .
* جائزة «بوليتزر» الأدبية عام ١٩٣٢ .
* ميدالية وليم دين هويلز الأميركية عن عام ١٩٣٥ .
* عدة شهادات دكتوراه فخرية من الجامعات الأميركية.

- عوالمي المتعددة - سيرة ذاتية تأليف بيرل باك.
- الأرض الطيبة - للمؤلفة.
- الأدب الأميركي المعاصر - دونالد هيني.



إدنا ميلاي



«كانت شمعة تحترق من الطرفين وتستنير بوهج نارها».



بعد مرور سنين على وفاة الشاعرة **ادنا سانت فنسنت ميلاي**، ظل احد الاصدقاء يتذكر صورتها صبية، جميلة، تركض في شارع من شوارع قرية غرينتش، شعرها الطويل يتطاير خلفها، وهي تضحك، وفي اعقابها شاب وسيم، والاثنان، يمثلان كوميديا المطاردة... وكانت الصورة حقيقية، تمثل، الى حد بعيد، الشاعرة التي طغت شهرتها، على الشعر الاميركي، طوال عقدين، كانا منعطفا هاما لا في الحياة الادبية، وحسب، بل وفي الحياة الاجتماعية.

والصورة مرحة، تمثل حياة الحبور والفرح، كما ترسم لوحة، للتحولات الهامة في وضع المرأة، عبر تلك المرحلة الزمنية.

لكن المرح الظاهر، والذي تستطيع ان تراه العين، ليس حقيقة الشاعرة؛ اذ كانت شخصيتها مأسوية، او كما وصفها بعض النقاد: **«كانت شمعة تحترق من الطرفين، وتستنير بوهج نارها»**.

* * *

ولدت **ادنا** في مدينة **روكلاند**، بولاية **ماين** في ٢٢ شباط عام ١٨٩٢ . وتنقلت في طفولتها، بين عدة مدن، داخل الولاية. ولم تعرف الحياة العائلية الطبيعية، اذ كان ابواها منفصلين. وهي، وان حافظت على علاقة جيدة مع والدها، الا ان التأثير الاكبر على توجيهها، ونمو شخصيتها، جاء من ناحية الام. امها **كورا** كانت امرأة مرهفة الحس، فنانة، تعلمت الغناء، واتقنته: لكنها اعتمدت على مهنة

التمريض كي تعيل اسرتها. ومنها، نهلت الفتاة بواكير اشعارها؛ فقد علمتها، الى جانب الموسيقى، فن كتابة الشعر. والعزف على البيانو، وذلك في سن الثالثة والرابعة.

هل كانت الام، تحاول التعويض من خيبة عاشتها؟ هل فاتها قطار العلم والفن، فشاءت ان تدفع ابنتها الى اغتنام الفرصة، قبل فوات الاوان؟

لا. تلك الام كانت واعية كيانها، وذات نظرة تربوية خاصة، ومتقدمة على زمانها؛ فقد اهتمت، اول ما اهتمت، بتربية بناتها وتوجيهِهِن الى الاستقلال الشخصي، وفهم الفنون. هذا من بعض ما تملكه شخصيا.

وبفضل تلك الام، استيقظت مواهب **ادنا** باكرا جدا، وراحت تنهل من ينبوع الشعر والموسيقى، تروي الظمأ المتجدد في ذاتها.

درست في المعاهد الابتدائية والثانوية، ولم تذهب الى الجامعة، حتى بلغت العشرين من عمرها: حين تقدم احد اصدقاء العائلة، وتبرع لها بقسط الجامعة. وهكذا دخلت الصبية **ادنا** جامعة **فاسار**. وبدأت، من هذه النقطة، تدخل سن النضج، وراحت مواهبها تستيقظ، بل تتفجر شعرا نشرته لها مجلات كبرى، تحت اسم مستعار: **نانسي بويد**.

في هذه الاثناء، اقامت في قرية غرينتش الجامعية، حيث امكنها ان تمارس الحرية، التي عبرت عنها نظريا في قصائدها.

وبدأت تلك القصائد تسافر، لا فوق صفحات المجلات وحسب، بل ومن فوق منابر الاندية الثقافية والمحطات الاذاعية.

وقد ساعد في دفعها الى التقدم والشهرة، ذلك الجرس في صوتها، والذي توصلت، عن طريقه، الى امتلاك الجمهور.

وقد ركز بعض النقاد على هذه الناحية، وقدروا ان ثلثي سحر شعرها، يأتي من قوة شخصيتها المنبرية الدرامية، ثم نبرة الصوت المخملي. لكن نقادا آخرين، عارضوا هذه النظرية، مؤكدين أن شعرها كامل بذاته، وهو رائع، بغض النظر عن شخصية قارئه.

* * *

لقد ساعد **ادنا** في الوصول الى الجمهور بسهولة، جمال شخصيتها؛ ففيها التقى الجمال الجسدي والروحي، وحوّلها سلوكها الى اسطورة، بل الى رمز لما تطمح اليه النساء...

ورثت عن والدتها موهبتها الفنية، فدرست فن التمثيل المسرحي، ومارسته، وكانت هي تكتب المسرحيات. ولم تعد تعتمد على احد في اعالتها، بل كتبت، وعملت بغزارة، كي تعيل نفسها.

* * *

لكن الظاهرة الملفتة هي خطوتها الاولى؛ فان قصيدتها وركيزة شهرتها «**البعث**»، ظهرت **وادنا** في العشرين من عمرها. وهذا ما دفع ذلك المعجب المجهول الى ان يتعهد دفع نفقات تعليمها حتى تخرجت في العام ١٩١٧، وكانت شهرتها قد سبقتها الى العالم، خارج الحرم الجامعي، فراحت تجري في اثرها. وبدأ النقاد يتناولون القصيدة بالتحليل، والمقارنة. وهناك من اعتبرها اهم شاعرة ظهرت منذ **سافو**، شاعرة **اليونان**. وبالطبع، كانت مواضيعها مختلفة تماما

عن النابغة اليونانية. غير ان الدافع الى المقارنة، هو قوة الشعر وصفاء الرؤى...

* * *

كانت عدة مناهل تُغْني الشاعرة بالافكار، والصور. فهناك تجاربها في الطفولة: طفولة حاجة وبرد ووحشة. وبقيت رواسب من صقيع الشتاء، في كل ما كتبت لاحقا... كما انها، في المقابل، عرفت كيف تقدر الدفء، وتدهش في فصل الربيع. وهنا، لا بد من ذكر العلاقة الحميمة، بينها وبين الطبيعة التي وهبتها كل عاطفتها، بينما احتفظت للانسان، بالتحدي والنقد اللاذع... ولا عجب في ذلك، حين نعلم أن الشاعرة شهرت حربا على كل القيم المتحجرة، وازاحت اقنعة الرياء عن وجه المجتمع، وخرجت، بكل ما وُهبَت من تفجر الذكاء والانوثة، لتغرس، حيثما نقلت خطاها، بذورا لحياة جديدة.

«اية اذرع

تمددت تحت رأسي،

تسنده،

الى ان يطل الصباح»..

اي شعر هذا؟

وكيف يرد المجتمع التحدي؟

بالطبع، لم يرشقها بالزهر. لكنها كانت واعية كل كلمة، كل سلوك، وكان هدفها إحداث الهزات المتتالية، وكان ينهض، ويعي أن المرأة، هي ايضا، انسانة ذات كيان مستقل، ولها حقوق، ولها مزاج.

وبالمقابل، كان الشباب يعتبرها رائدة. فقد صوّرت احاسيس جيل بكامله، ورسمت أهواءه، وتوقه الى الاستقلال وتحقيق الذات...

وحين كتبت ديوانها الثاني «**بعض التين من الشوك**» كانت تضع «**كلمة الحراسة للشباب المتفجر**». وقد جلب لها المزيد من الشهرة، انما المبطنة بأسباب التعاسة.

* * *

كانت **ادنا** في الحادية والثلاثين من عمرها، حين اقترنت بشاب احبها، اسمه **يوجين بواسوفين**. وهو رجل اعمال ناجح، ومن اصل هولندي، تخلى عن اعماله، وبدأ يهتم بالمرأة الذكية، الموهوبة التي اصبحت رفيقة عمره. وازداد اهتمامه بها حين باتت مقعدة، وهي في متوسط الأربعين. كما اصيبت بعدة انهيارات عصبية، جعلت الزوجين يعتزلان حياة الضجيج، وذلك بعد سنتين فقط من زواجهما، وعاشا معا، مدة ربع قرن، في مزرعة **بيركشاير** بولاية **نيويورك**. كانت حياة **ادنا**، في تلك الفترة، متقشفة، بسبب ضعف صحتها، وتعكّر مزاجها. وباتت تنفق وقتها في كتابة الشعر، وتأمل الطيور، والعناية بالحديقة، وعزف الموسيقى، ثم قراءة الادب اللاتيني.

بدأت، تلك الشخصية المشعة بألف لون، كما وصفها أحد الاصدقاء، بدأت تذوي، وراحت ينابيع الفرح تغور في الاعماق؛ وذلك حين شحّ منبع الشعر، وكان يتدفق من الاعماق، حاملا في تياره نسغ الحياة، ووهج السعادة.

ازدادت حالة الشاعرة سوءا حين توفي زوجها ورفيقها الوفي، عام

١٩٤٩، اثر عملية في الرئة. وعندها، لفتها غمامة الوحشة واسودت الدنيا في عينيها، وظلت تقاوم طوال عام.. سلمت بعده السلاح واستراحت. ففي صباح يوم من ايام تشرين الاول، عام ١٩٥٠، وجدت **ادنا** ميتة على سلم بيتها، وبين يديها مسودة ديوان كانت تعمل على تصحيحه. وتحققت رؤيا، من احدى قصائدها:

«الأبدية انحدرت واستقرت علي».

* * *

وحديث الموت يتكرر في شعرها: فهو والحياة وجهان لعملة واحدة، واذا كانت شديدة الحس بالحياة، فانها لم تهمل الموت:

«ويده تطبق فمي سوف يجرني الى الامام بينما اصرخ ناحية الجنوب، واتكمش بالشمال».

الى جانب الموت صنو الحياة، كتبت **ادنا** في مواضيع اخرى. وبقيت ذاتية، مخلصة لشعورها، ونبض اللحظات.

وقد لاحظت باكرا، الظلم المستشري في الكون، فتصدت له:

«اتركوني اصرخ في اذن هذا الكون، فلدي رسالة يجب ان تبلغه، دعوها تنطلق كالسهم، مخترقة سبيلها الى قلبه الكبير».

وكان لها ذلك الحنان الشفاف، وهي تعانق الطبيعة، برومنسية تعدي:

«هناك، في غسق السهول،
جلست قرب النافذة، قرب «فرجيل»
جلست مع روح الميت،

المنبعثة من جديد

في روحي..»

والشاعرة التي احدثت صدمة في القيم الاجتماعية، وقفت من الحب وقفة ساحرة، وكأنما كانت تعبث بموضوع لم تعتبره مقدسا، بل جعلته من عناصر الحياة، الخاضعة ابدا للتحول والتغيير:

«ما الحياة؟

انها لا شيء، كأس فارغة / وسلالم لم تفرش بالسجاد»...

و «الحب يأتي مصادفة، ويبقى بالفن».

وكتبت، خلال الحرب العالمية الثانية، قصائد صورت فيها اهوال الحروب، وما تخلفه من بؤس ودمار. ثم وقفت منه، اي من الموت، موقفها المتحدي:

«ايها القبر، القبر الجائع،

لن املأ فراغك،

ارسل زعيقك، ما شاء لك ذلك،

فأنا سعيدة هنا.

عض على جانبيك وتابع الصوم

لست خائفة من ظلامك

فقلبي اختار الحياة،

سوف انجب ابطالا

قبل ان يأخذني الموت».

* * *

لكن **ادنا** لم تنجب. وبقيت الامومة امنية، لم تتوقف عندها: فهي، في الدرجة الاولى، فنانة وقصائدها اولادها.

وفي العام ١٩٢٣ نالت اعلى جائزة ادبية في بلادها «**بوليتزر**» وذلك على قصيدتها الشهيرة «**الربيع الثاني**» وقصيدتها الاسطورية «**حائك القيثارة**» وفيها معارضة لقصيدة اخرى نالت في الوقت نفسه جائزة «**دايال**» واعني «**الارض اليباب**» للشاعر **ت. س. اليوت**. فهو عدمي، وهي تعتنق فلسفة «**انا اكترث، إذاً انا موجودة**».

وادنا صاحبة المواهب المتعددة، كانت واسعة الثقافة. قرأت باكرا اعمال **شكسبير**، والادب اللاتيني والإغريقي. وكان ديوان الشعر اللاتيني يلازمها، حتى في سفرها، وتعتبره غذاءها الروحي. وفي احدى المرات، خسرت اعمالها الشعرية في اثر حريق في فندق كانت بين نزلائه: فلم تحزن على شعرها بقدر ما حزنت على مخطوطة باللاتينية، مطبوعة في القرن السادس عشر.

عملت طوال سنتين في ترجمة ديوان **بودلير** «**ازهار الشر**».. واعتبرته تمرينا جيدا، وان كان مضجرا. اما ديوانها الاول «**البعث**»، الذي كتبته في سنوات المراهقة، فقد رفض من قبل لجنة التحكيم في مباراة شعرية اقيمت عام ١٩١٢ . واعتُبر هذا الرفض، فضيحة العصر. خصوصا وان «البعث» لا يزال يُعد من اهم ما كتب في الشعر المعاصر. لكن الرافضين هم الذين يبحثون عن التجارب الجديدة. وقد

اعتبروا شعرها تقليديا. وفي الواقع، ان **ادنا** لم تدخل في تجارب الحداثة، وظلت الكلاسيكية سبيلها. وقد اعتمدت المقطوعات القصيرة، وابدعت. وكان همها حياكة الحياة، والانغماس في عناصرها، حتى آخر مدى.

اما في المسرح، فقد عرفت الشاعرة النجاح الكبير في زمانها. وهي تشبه **شكسبير** في دخولها المسرح عن طريق التمثيل والشعر. وكتبت كلمات اوبرا «**تابع الملك**» قدمت على مسرح «**ميتروبوليتان نيويورك**»، عام ١٩٢٧، وعرفت نجاحا لم يسبقها اليه احد.

ومع ان الشاعرة توفيت في عمر النضج وقمة العطاء، فقد تركت بعدها ستة عشر ديوانا شعريا، وسبع مسرحيات، وبضعة مؤلفات تجمع نثرها، رسائلها، وحوارها. هذا، اضافة الى ترجمة «**ازهار الشر**». وقد كتبت عنها عشرات الابحاث والدراسات، وحتى قبل وفاتها. وهناك ما يزيد على الخمسة عشر كتابا وضعت عنها وعن ادبها واعتُبرت الشاعرة التي مثلت عصرها، خير تمثيل، وتداخلت في نسيجه، واخترقت الكهوف المظلمة من عقل الانسان، وطرحت كلمتها ببساطة واقناع.

وكان لهذه الفنانة الكبيرة اصدقاء، واعداء... اما اصدقاؤها فهم: **الحقيقة، الحياة، الاناقة** في الكلمة كما في الشكل.

اما الاعداء فهم: التفاهة، الحرب، والموت.

وهذا الأخير، ظل الد الاعداء لأنه:

«الى تحت،

الى ظلمة القبر،

يمضي بهدوء،
الجمال، واللطف والحنان»...

- موسوعة كاغستون.
- الموسوعة البريطانية:
- ادنا ميلاي، تأليف - جيمس غراي.
- ادنا ميلاي وزمانها - تاليف: اليزابيت أتكينز.

فهرس


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



تقدم فصول هذا الكتاب، بأجزائه الستة، وجوها لنساء رائدات، من الشرق ومن الغرب. وقد اخترتها بقصد تسليط الضوء على ما مرت به المرأة، عبر العصور، من صراع مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل إنماء طاقاتها، وتحقيق طموحها وأحلامها، وبالتالي، بلوغ الرتبة الرفيعة التي استحقتها.

وإذ أضع، بين أيدي قراء العربية، هذه النماذج المتغلبة والمتفوقة من النساء، أتوخى ان تكون كل واحدة من رائدات الأمس، مشعل هداية وإلهام لرائدات الغد.

ا. ن.

نساء رائدات (١) من الشرق
نساء رائدات (٢) من الشرق
نساء رائدات (٣) من الشرق
نساء رائدات (٤) من الغرب
نساء رائدات (٥) من الغرب
نساء رائدات (٦) من الغرب

